طريدةُ ابن المُبارك

محمد بن موسى المحمدي

النشـرة الاولى | ١٤٤٢ هـ

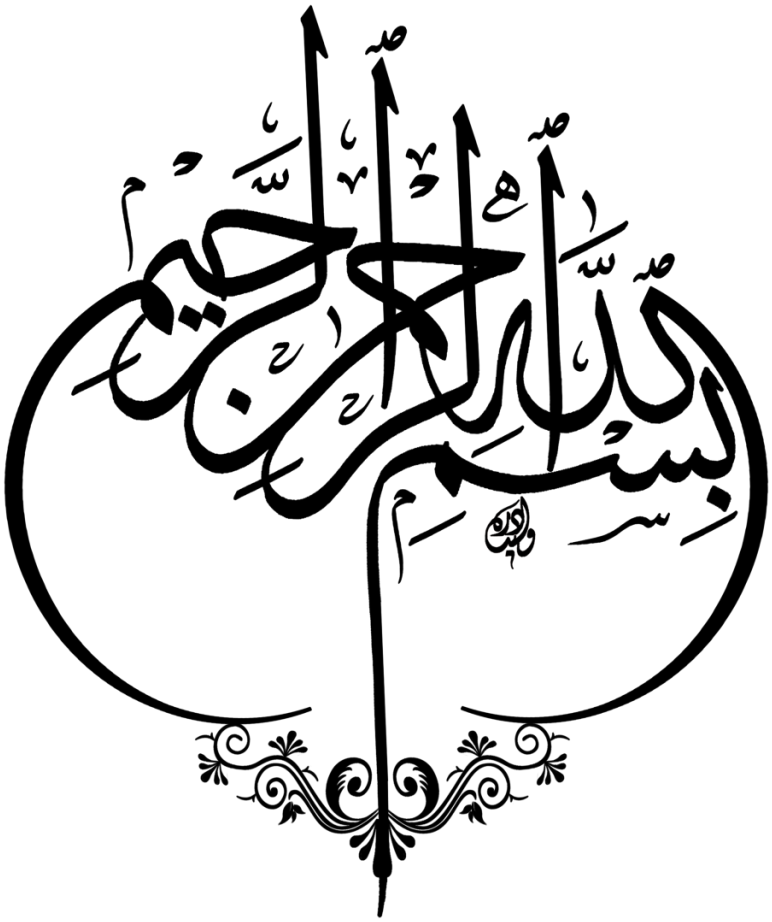
بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الذين اختاروا
مُجالسةَ الصَّالحين
وانتقاءَ أطايبِ كلامهم

مقدمة

كان "الإمامُ شيخُ الإسلام عالمُ زمانه وأميرُ الأتقياء في وقته"[1] عبدالله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ يُلام على دأبه المستمر بلا كَلَلٍ في تطلب فرائد العلم، فكان يقول عبارته الخالدة: "لعلَّ الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد".

وهكذا ظلّ يُطارد الفائدة العلمية كتابةً وقراءةً حتى لقي ربه.

ولا أجد وصفاً أدقَّ لهذا المنهج المبارك وأبرعَ من قول ابن الأعرابي –إمام اللغة الكبير– واصفاً عبدالله بن المبارك: "كان لا يترك نقّارة إلا انتقرها، ولا نمّاصةً إلا انتمصها، وإنّه لملقفة الكلمة الشّرود"[2].

وهكذا حال النّاصح لنفسه، يتخذ أسلوب ابن المبارك نهجَ حياة، فيتعلم ويعمل، ثم يتعلم ويعمل، وهكذا يسوس نفسه ويذكرها على الدوام أنَّ هناك فوائدَ بانتظاره، وأنّ منها ما قد يمثل لحظةً مفصلية في حياته كتلك اللحظة التي سمع فيها البخاري من شيخه ما حَفَزه لتأليف الصّحيح.

وهذه الطرائد ليست حكراً على الكتب الرَّصينة الثقيلة، بل قد تجدها في مصنّف لطيف يمكن أن يُتناول في جلسةِ قراءةٍ استرواحية تُقدَّم فيها المعلومةُ

---

[1] هكذا ترجم له الذهبي في سير أعلام النبلاء.

[2] للمزيد حول سيرة هذا العالم الجليل: انظر النافذة التاسعة والعشرين من هذا الكتاب.

المفيدةُ في قالبٍ خفيفٍ، على طبق من ذهب، قطوفاً دانيةً تُجنى ثمارها المعرفيّة بشكل سلس مستطاب، ثم تترجم في الواقع المعاش بطريقةٍ ما.

ومن هنا جاءت هذه الورقات مُجِمَّةً للنفس ممتعةً للعقل، في ثلاثين نافذةً معرفيّةً متنوعةً تُقرأ بلا كدٍّ ذهن، وتُشرب أفكارها مع الماء القراح.

سائلاً الله تعالى من فضله العميم ومنِّه الكريم أن يكتب فيها نفعاً للجامع والقارئ.

مصليًّا على معلم البشرية الخير..

صلّى عليه اللهُ في عليائهِ ما سبّحَ العبدُ المطيعُ وكبّرا

الفقير إلى عفو ربه

محمد بن موسى المُجَمِّي

maktoob1427@gmail.com

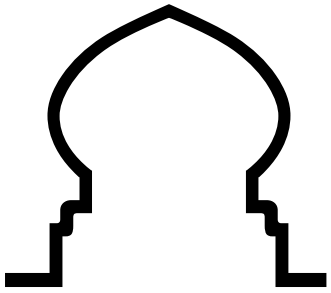

النافذة الأولى

العمر ليس إلا رقماً

ليس العمر إلا رقماً لا ارتباط بينه وبين علو الهمم وجلائل الأعمال وجميل الأثر أو الضد من ذلك.

★ ★ ★

فهذا **معاذ بن جبل** الخزرجيُّ الأنصاريُّ ﷺ وأرضاه؛ شهد العقبة وبدراً، وكان أعلمَ الصحابة بالحلال والحرام، ويأتي يوم القيامة سابقاً العلماءَ بِرَتْوة، وبعثه النبي ﷺ إلى اليمنِ قاضياً ومعلماً، وكان من أهل مشورة عمر بل قال: "من أراد الفقه فليأت معاذ"، ومع هذا مات بطاعون عمواس وهو في السادسة والثلاثين (٣٦) من عمره.

★ ★ ★

وإبراهيم التيمي الإمامُ القدوةُ الفقيهُ العابدُ العالمُ الواعظ، حديثه في الكتب الستة؛ قتله الحجّاج ولما يبلغ الأربعين (٤٠).

★ ★ ★

وعمر بن عبدالعزيز، أميرُ المؤمنين، الإمامُ الزاهدُ العابد، كان العلماءُ عنده تلامذة، طبّقَ الآفاقَ ذكرُهُ الجميل؛ مات سنة ١٠١ هـ وعمره أربعون (٤٠) سنة.

★ ★ ★

وعبدالله بن المقفع، رأسُ الكُتّاب البلغاء الفصحاء، صاحبُ الدرة اليتيمة التي ما صنف مثلها كما قال الأصمعي، وصاحب الأدب الكبير والأدب الصغير، مات في السادسة والثلاثين (٣٦) من عمره.

★ ★ ★

وابن نَبَاتة، خطيبُ الخطباء، إمامُ الأدباء، صاحبُ الخطب التي لم يُعمل مثلها؛ مات وعمره تسعة وثلاثون (٣٩) عاماً.

★ ★ ★

ومن منّا لم يسمع **ببديع الزّمان الهمذاني**، صاحبُ المقامات الأدبيّة المشهورة، أعجوبة الزّمان في الحفظ؛ مات سنة ٣٩٨هـ عن أربعين (٤٠) سنة.

★ ★ ★

وأعجب منه **ابنُ بَرْهان**، صاحب البسيط والوسيط والوجيز –كلها في أصول الفقه– انتهت إليه الرحلة، وتزاحم الطلاب على بابه، وكان وقته مشغولاً كله بالتدريس، حتى طلب إليه مجموعة درساً فلم يجد لهم وقتاً إلا بعد منتصف الليل! زاره أجله سنة ٥١٨هـ وعمره تسعة وثلاثون (٣٩) عاماً.

★ ★ ★

وابنُ عبدالهادي، الفقيهُ المقرئُ المجودُ المحدثُ الحافظُ النحويُّ الحاذقُ المتفنن، تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، له أكثر من مائة مصنف، أشهرها "العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية" و"الصارم المنكي في الرد على

السبكي" و"المحرر في الحديث"؛ كل هذا وقد وافته المنية سنة ٧٤٤هـ وعمره أربعون (٤٠) سنة.

★ ★ ★

وأما **سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهّاب**، حفيد الإمام، آيةُ العلم في الحديث والتفسير والنحو، المشهور ببراعة التدريس، والجسارة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صاحبُ "تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد"؛ فقد قتله إبراهيم باشا ظلماً وعدواناً قِتلةً شنيعةً سنة ١٢٣٣هـ وعمره ثلاث وثلاثون (٣٣) سنة فقط.

★ ★ ★

وأما زَين جازان، ودرة الزمان، الشيخُ العلامةُ الفقيهُ الأديبُ المتقنُ المتفننُ **حافظ بن أحمد الحكمي**؛ فقد نظم "سلم الوصول" في التاسعة عشرة من عمره، ثم شرحه بعد ذلك في "معارج القبول". درّس وصنّف شعراً ونثراً في شتّى الفنون مما يُستشرح من كبار علماء الأمصار إلى اليوم؛ كانت وفاته سنة ١٣٧٧هـ عن ست وثلاثين (٣٦) سنة.

★ ★ ★

وفي نفس هذه السنّ مات الشيخُ العالمُ المحدثُ **عبدالله بن محمد الدُّويش**، صاحب "المورد الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال" و"تنبيه القاري

على تقوية ما ضعفه الألباني وتضعيف ما قوّاه الألباني" و"الكلمات المفيدة على تاريخ المدينة"[1].

★ ★ ★

ليس العمر إلا رقماً، وإنَّ رسالتك أن تشغله بذخائر الأعمال، وأن تبادر إلى ذلك ما استطعت إليه سبيلاً.

★ ★ ★

[1] لمزيد: العلماء الذين لم يتجاوزوا سن الأشد، علي بن محمد العمران.

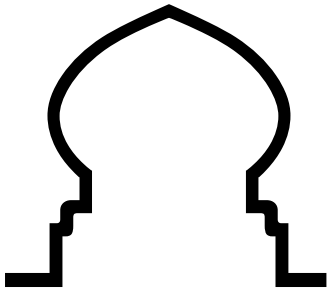

النافذة الثانية

التّربيّة المحمديّة

نهوضُ الأممِ معقودٌ بصحة التعليم وجودة التربية.

والمناهج الأرضيّة مهما حَسُنت لن تخلو من قصور. وليس كالمعين النبويِّ نافعاً في التربية والتعليم، كيف وصاحبه البشيرُ النذير، مَنْ بعثه ربه مُعلماً مُيسراً، في أعلى درجات الكمال البشري، ساسَ العربَ وعلّمهم وأدّبهم وأحال قسوة قلوبهم وخشونة أخلاقهم وجفاء طباعهم إلى الضد من ذلك.

وهاك بعض معالم التربية والتعليم عنده –عليه الصلاة والسّلام–:

★ ★ ★

أولاً: الحفاوة والترحيب وحسن الاستقبال

أتاه أبو رفاعة وهو يخطب على المنبر فقال له مقاطعاً: رجلٌ غريبٌ جاء يسال عن دينه. فما كان منه –عليه الصلاة والسلام– إلا أنْ قطع خطبته وأقبل عليه باسماً كَطَلِّ النَّدى، وأُتي بكرسيٍّ فقعد يُعلمه حتى أروى نُهمته، ثم عاد إلى خطبته.

وما أرقَّ استقباله لوفد عبد قيس حين قال لهم: (مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى).

وما أعذب ترحيبه بالأشعريين حين قال: (أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً. الإيمان يمان والحكمة يمانية).

★ ★ ★

المعلم الثاني: الرفق والرحمة بالمتعلمين

أتاه مالك بن الحويرث في رفقةٍ له مكثوا عنده عشرين ليلة يعلمهم، فلما أحسَّ اشتياقهم لأهلهم أذن لهم بالرجوع. قال مالك بن الحويرث ﷺ: وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً.

وليس يخفى على أحد موقفه مع الأعرابي الذي بال في المسجد، وموقفه مع معاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة جاهلاً، وموقفه مع الشاب الذي طلب الرخصة في الزنا.

★ ★ ★

المعلم الثالث: الثناء والتشجيع

سأله أبو هريرة ﷺ سؤالاً فقال له النبي ﷺ: (لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك). يا له من وسام! ويا له من تشجيع لطلب العلم!

وموقفه مع أبيِّ بن كعب ﷺ حين سأله عن أعظم آية فأجاب بالصّواب فضرب النبي ﷺ في صدره وقال: (ليهنك العلم يا أبا المنذر).

وقوله لأعرابي سأله عن عملٍ يقربه من الجنة ويباعده من النّار: (لقد وفق) أو قال: (لقد هدي)، ثم أقبل عليه وأجابه.

ولما رجع من غزوةٍ قال: (خيرُ فرساننا اليوم أبو قتادة، وخيرُ رجالتنا سلمة). ثناءٌ وتشجيعٌ أمام مجمع الصحابة الكرام.

★ ★ ★

ومعلم رابع: التدرج ومراعاة الحال

وهو جليٌّ في وصيته لمعاذ لما أرسله إلى اليمن.

★ ★ ★

ومعلم خامس: توظيف الأحداث

مرَّ والناسُ معه على جديٍّ ميّتٍ أَسَكّ، فعلَّمهم أنَّ الدنيا أهونُ على الله مِنْ هذا الجدي عليهم.

ولما رأى المرأةَ التي وجدت صبيَّها في السبي فألصقته ببطنها وأرضعته علَّم الصحابةَ أنَّ اللهَ أرحمُ بعباده مِنْ هذه المرأة بولدها.

ولما رأوا القمرَ ليلةَ البدرِ علّمهم أنهم سيرون ربهم عياناً كما يرون القمر.

وأُهديت له حُلّةٌ حسنةٌ ليِّنةٌ مِن حرير فقال: (مناديلُ سعد بن معاذ في الجنّة خيرٌ منها وألين).

★ ★ ★

ومن هذه المعالم: تبسطه مع المتعلمين، وتبسمه في وجوههم، وعيادته المريض منهم، واتباعه جنازة الميت، ومداعبته الصبيان، واستماعه إنشادهم الشِّعر، وممازحته إياهم.

★ ★ ★

وبالمجمل؛ من أراد الأساليب التربويّة والتعليميّة الناجعة المؤثرة فليتطلبها في الهدي النبويّ فإنه واجدٌ بُغيته[1].

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

★ ★ ★

[1] لمزيد: النبي ﷺ معلماً، فضل إلهي.

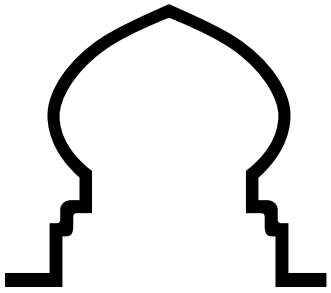

النافذة الثالثة

تنفّس الحريّة في جنّة الإسلام

تُثبت الوقائعُ أنّ الإسلام ألغى الطبقيّة في المجتمع.

يقول المؤرخ البريطاني الشهير **أرنولد توينبي**: "إنَّ انعدام الطبقيّة في المجتمع الإسلامي كان واحداً من الإنجازات الأخلاقيّة بالغة الروعة للإسلام، وفي عالمنا المعاصر توجد حاجةٌ ملحةٌ للإفادة من هذه الفضيلة الإسلاميّة".

ويقول: "إنَّ الأخوة الإسلاميّة بين مختلف الأعراق ليست مجرد دعوى نظريّة، بل هي واقعٌ عمليٌّ في المجتمع المسلم حيث الزنجيُّ المسلم يقف على قدمِ المساواة مع الأبيض والأحمر والأصفر. إنَّ العلم الحديث يقبل إلى أدقّ التفاصيل التصور الإسلامي للوحدة البشرية".

★ ★ ★

ويقول المستشرق البريطاني **جِبّ**: "لا يوجد مجتمع آخر كالإسلام كان له مثل سجله في النجاح في إيجاد المساواة في المراكز الاجتماعية والفرص".

★ ★ ★

لا يذهبْ ظنك أخي القارئ إلى أنَّ تلك أقوالٌ منتخبة لبعض مفكري الغرب، بل هي حقيقة تقررها موسوعاتهم الفكريّة والعلميّة، ففي **الموسوعة البريطانية** ١٢/ ٦٦٩: "إنّ العامل الجوهري والأكثر ديناميكية في مجال الأخلاق الاجتماعيّة التي منحها الإسلام للإنسانية هو المساواة، فكل أعضاء

المجتمع المسلم بغض النظر عن العرق أو اللون أو المركز الاجتماعي والاقتصادي أعضاءٌ متشاركون على قدم المساواة في المجتمع".

★ ★ ★

ومن الغرب إلى الشرق، وهذا النص البديع من المفكر الهندي **راما سُوامي**: "أعتبرُ –وكلُّ العقلاء يوافقونني على ذلك– أنَّ الإسلام لا غير هو العقيدة الديموقراطية في العصر الحاضر. أنا هندوكي ومتشدد في الالتزام الديني، ومع ذلك أجدني مجبراً على الاعتراف أنَّ ديني بالرغم من فلسفته الأساسيّة قد فشل في أنْ يضع موضع التطبيق وحدة الإنسانيّة.

لا يوجد دينٌ مهما كانت نظرياته قد طبّق عمليّا الفكرة الأساسية لمساواة البشر أمام الله غير الإسلام.

إنّ الإسلام فقط هو الذي لم يكن ليسمح بظهور مشكلات التمييز التي وجدت من قِبَل البوير في جنوب إفريقيا أو في روسيا البيضاء أو استراليا أو الولايات الجنوبيّة في الولايات المتحدة الأمريكيّة وحتى في إنجلترا".

★ ★ ★

النقول في هذا لا تنتهي، وكلها يؤول إلى تقرير أنَّ الثقافات شرقيها وغربيها أخفقت في تحقيق ما نجح فيه الإسلام من إلغاء الوعي بالتمييز العنصري بصفة كليّة.

لا يوجد دين ولا ثقافة قررت واعتنت بالتربية على التسامح كالإسلام. تسامحٌ في عزة دون ذلٍّ أو هوانٍ أو خضوعٍ أو استكانةٍ أو تصحيحٍ لدينٍ غير دين الإسلام أو قبولٍ لتوجيه مخالف لما في الكتاب العزيز وسنة النبي الكريم. تسامحٌ في ظلِّ مبدأ: "العزة لله ولرسوله وللمؤمنين".

★ ★ ★

جاء الإسلامُ بتقرير محاسن الأخلاق، والنبي المصطفى ﷺ قال: (إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق).

وجعل الإسلامُ معيارَ التمايز بين أفراده تقواهُم، وقربُهم من مولاهم، وألغى كلَّ ما عدا ذلك.

تأمل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وقول النبي الكريم ﷺ في يوم حجة الوداع: (أيها النّاس إنَّ ربكم واحد وأباكم واحد. إنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى).

وعندما عيّر أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بلون أمه السوداء —وكان أبو ذر من أقرب الصِّحابِ إلى قلب النبي الكريم، ومن السابقين الأولين، وممن بذل للإسلام وبذل– ومع ذلك قال له النبي الكريم: (إنك امرؤ فيك جاهليّة).

★ ★ ★

لقد حُسم الأمر وانتهى الجدل وفُصل القول!

لا مكان للجاهليّة في الإسلام!

ولا مجال للتمييز العنصري في المجتمع المسلم!

هنا: الألوانُ واحدة،

والأنسابُ واحدة،

والوظائفُ واحدة،

والأرصدةُ واحدة!

أيُّ طعامٍ ككلِّ الطعام، وأيُّ مركبٍ ككلِّ المراكب، وأيُّ لباسٍ ككلِّ اللباس، وأيُّ منصبٍ ككلِّ المناصب.

اللهُ قسّمَ الأرزاقَ والأنسابَ والأشكال، وأمر بالتقوى وعليها يُحاسب ويُمايز ويُجازي[1].

★ ★ ★

[1] لمزيد: التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب، الشيخ صالح الحصين رحمه الله تعالى.

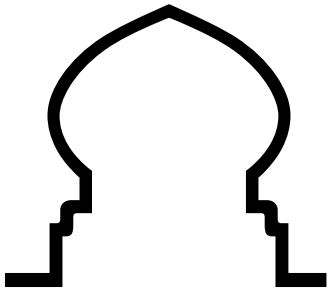

النافذة الرابعة

تاج القُضاة

أعلامٌ كُثر هم اليوم في أذهان كثير من المسلمين في حكم المجاهيل.

★ ★ ★

أحدُ هؤلاء: العلامةُ الفقيهُ الورعُ الحافظُ عبدالله بن محمد بن حميد، المولود في الرياض سنة ١٣٢٩هـ، والمتوفى بالسرطان في الطائف سنة ١٤٠٢هـ عن ثلاث وسبعين (٧٣) سنة، والمدفون بمقبرة العدل بمكة.

★ ★ ★

نشأ يتيم الأب فتولت أمه مهام تربيته، وزاد الحِمل عليها بعد فقده للبصر قبل بلوغه السّابعة إثر إصابته بالجدري، ثم توفيت الأم بعدها مباشرة.

ولما بلغ العاشرة ابتدأ طلب العلم فحفظ القرآن الكريم على الشيخ علي بن مديميغ، وجوّده على الشيخ عبدالظاهر أبو السمح إمام الحرم المكي، ودرس اللغة على الشيخ حمد بن فارس، ثم لازم الشيخ محمد بن إبراهيم وقرأ عليه في شتّى الفنون وتأثر به غاية التأثر وانتفع بعلومه غاية الانتفاع.

★ ★ ★

كان شديدَ الحرص على طلب العلم، وحُبِّبَ إليه جمع الكتب النافعة والنهل من علومها فكوّن مكتبةً ضخمةً تضم ألوفَ المراجع.

وقد رزقه الله ذكاءً وحفظاً وقوّةً في الحق ومَلَكَة فقهيّة فريدة.

ابتدأ الشيخُ التدريسَ مساعداً لشيخه محمد بن إبراهيم سنة ١٣٥٦هـ وانتفع به خلق عظيم.

وفي السنة التالية عيّنه الملك عبدالعزيز قاضياً في الرياض بعد تمنّع شديد.

بعدها بثلاث سنوات أرسله الملك عبدالعزيز قاضياً في المجمعة فجمع بين القضاء والتدريس وانتفع به خلق عظيم.

وفي سنة ١٣٦٣هـ عيّنه الملك قاضياً في القصيم إثر وفاة عَلَمِها عمر بن سَليم، وكان الشيخ يجمع بين القضاء والتدريس، واستمر على ذلك أربعة عشر عاماً، ثم تفرغ للتدريس عام ١٣٧٧هـ وانتفع به خلائق.

وكان الملك عبدالعزيز عام ٧١ قد عيَّنه مستشاراً للشؤون الدينيّة، وعام ٧٢ انتدبه للحجاز لحل القضايا الشائكة لديهم.

وفي عام ٨٤ أنشأ الملكُ فيصل الرئاسةَ العامة للإشراف الديني على المسجد الحرام، وعيّن الشيخ رئيساً لها، فانتقل إلى مكةَ ودرّس في الحرم.

وفي عام ٩٥ أنشأ الملكُ خالد مجلسَ القضاء الأعلى، وعيّن الشيخ رئيساً له، فانتقل إلى الرياض، واستمر في هذا المنصب مع استمراره في التدريس في المساجد حتى وافاه الأجل عام ١٤٠٢هـ.

★ ★ ★

كان منهج الشيخ متميزاً في التدريس والقضاء والإفتاء والدعوة والاحتساب والجدل والمناظرة. وكان محتسباً لا يخاف في الله لومة لائم، وله قصص مشهورة في هذا المجال[١].

درّس الشيخ في المعهد العالي للقضاء، وكان عضواً في هيئة كبار العلماء من تاريخ تأسيسها عام ٩١، وعضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، ورئيساً للمجمع الفقهي فيها، وناقش عدداً من الرسائل العلميّة؛ منها رسالة الشيخ صالح الفوزان.

★ ★ ★

كان الشيخُ صاحبَ خُلُقٍ رفيعٍ مع هيبةٍ وقوّةِ شخصيّةٍ وتواضعٍ وورع، ذكيًّا فطناً حافظاً، له قصص عجيبة في الدَّهاء في مجالس القضاء[٢].

أما القصص المرويّة في قوّة ذاكرة الشيخ فهي عجب عجاب، فقد كان يتذكر صوت الشخص الذي التقاه مرّة واحدة بعد عشرين سنة من هذا اللقاء، وربما تذكر الشخصَ من ملمس يده فقط، أو سَمِعَ صوتَ الشخص فقال: "لا أعرفك وإني أظنك ابن فلان؛ صوتك يشبه صوته" فيقول نعم! في قصص عجيبة[٣].

★ ★ ★

[١] أورد صاحب كتاب "تاج القضاة في عصره" ثماناً منها.

[٢] ذكر صاحب المرجع السابق تسع قصص مذهلة عجيبة.

[٣] في المرجع نفسه عدد كبير من هذه القصص العجيبة.

تميز الشيخ بجهوده العظيمة التي بذلها في التدريس والإفتاء والتأليف. ولما ظهرت الإذاعة والصحافة كان من أوائل المستفيدين منها لنفع النّاس ونشر العلم، وفتاواه في برنامج نور على الدرب؛ لها تميز ونكهة خاصة وأسلوب فريد.

وكان للشيخ مشاركات في المؤتمرات الإسلامية.

★ ★ ★

ومن مآثره سعيه لفتح المعهد العلمي في بريده وهو الثاني على مستوى المملكة، وسعيه في حفر الآبار وتعيين الأوقاف وعمارة المساجد وتأسيس المكتبات العلميّة وإنشاء معهد الحرم وتوحيد الأذان في الحرم وتطوير مكتبة الحرم المكي. علاوةً على نفع أصحاب الحاجات.

★ ★ ★

خلاصة القول: كان الشيخ عبدالله بن حميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمّةً في رجل. ولذا قال الشيخ عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد وفاته: "لقد ترك أثراً كبيراً وفراغاً عظيماً، وذلك بسبب غزارة علمه وكثرة فضله واهتمامه بأمور المسلمين. لقد كان من أخصِّ أحبائي، ومن أخيرِ أهلِ العلم الذين تعاونت معهم"[1].

★ ★ ★

[1] لمزيد: تاج القضاة في عصره، سليمان العثيم، نشر دار القاسم.

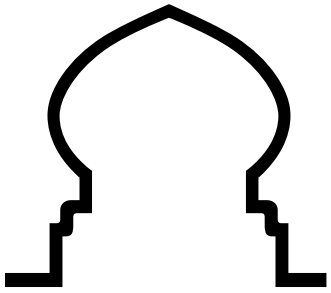

النافذة الخامسة

مَن تُجالس؟

اقتضت حكمة الله تعالى أنْ جعلَ الإنسانَ ميّالاً بطبعه إلى مخالطة الآخرين ومجالستهم والاجتماع بهم.

وهذه المجالسة لها أثرٌ كبيرٌ في فِكر الإنسان ومنهجه وسلوكه ومصيره في الدنيا والآخرة.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ولا تغفل عن حديث المصطفى حين شبّه الجليسَ الصّالحَ بحامل المسك، وشبّه الجليسَ السوءَ بنافخ الكير.

★ ★ ★

احرص على مجالسة الصالحين تحظ بثمرات هذه المجالسة، ومنها:

أولاً: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم

إنْ جلست معهم شملتك بركة تلك المجالس، وعند البخاري مغفرة الله لأهل مجالس الذكر ولعبدٍ خطّاء جلس معهم لما مرّ بهم فيقول رب العزة والجلال: (وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم).

ثانياً: القدوة والأسوة

الاقتداءُ بهؤلاء الصالحين، والتأثرُ بما تجد لديهم من علمٍ وعملٍ وسلوكٍ ومنهج.

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: "انظروا إلى فرعون معه هامان، وانظروا إلى الحجّاج معه يزيد بن أبي مسلم شرٌّ منه، وانظروا إلى سليمان بن عبدالملك صحبه رجاء بن حيوة فقوّمه وسدّده".

★ ★ ★

ثالثاً: البصر بالعيوب

جليس الخير يبصرك بعيوبك فتترقى كل يوم في مدارج الفلاح.

★ ★ ★

رابعاً: معرفة الصالحين

جليس الصلاح يعرفك بآخرين صلحاء تنتفع بهم.

★ ★ ★

خامساً: حفظ العمر من الضّياع

صحبة الصالحين تكفك عن المعاصي، وتحفظ وقتك، وتوجد لك قدوات تحاول الوصول لمكانتهم في العلم والعمل والدعوة.

★ ★ ★

سادساً: دعوات بظهر الغيب

صحبة الصالحين سبيل للانتفاع بدعائهم لك بظهر الغيب في حال حياتك وبعد مماتك.

ذكر الخطيب البغدادي في ترجمة الطيّب بن إسماعيل أنه كان له صحيفة فيها ثلاثمائة من أصدقائه يدعو لهم كل ليلة.

★ ★ ★

سابعاً: سببٌ لمحبة الله

مجالسةُ الصالحين ومحبتهم في الله سبب لحب الله، فقد وجبت محبته للمتحابين فيه والمتجالسين فيه والمتزاورين فيه والمتباذلين فيه.

★ ★ ★

ثامناً: تحصيل فوائد مجالس الذِّكر

مجالس الصالحين مجالس ذكر لله تعالى، وهي مجالس تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة وتتنزل عليها السكينة ويذكر الله أهلها فيمن عنده.

★ ★ ★

هذه ثمانية أمور فيها كفاية لإيضاح فضل مجالس الصالحين.

ومع ذلك؛ ومن باب قولهم: "وبضدها تتبين الأشياء، والضدُّ يُظهر حسنه الضد"؛ فمجالسة السيئين:

- تشكك في معتقداتك الصحيحة،
- وتدعوك للمحرمات والمنكرات،
- وتذكرك سيماهم بالمعاصي،
- والطبع سرّاق،
- والسيئ لن يُعَرِّفَكَ إلا على أمثاله وأضرابه،
- وهو يخفي عنك عيوبك،
- ويُكَرِّهُكَ في الصالحين،

- ولا يُقبل عليك إلا مع النعمة، أما عند النكبات فلن ترى له ظلاً،
- ووقتك معهم ضائع،
- وسمعتك بسببهم في الحضيض.

★ ★ ★

قال الفاروق ﷺ: "ما أُعطي عبدٌ بعد الإسلام خيراً من أخٍ صالح".

★ ★ ★

اللهم اجعلنا من أهل الفلاح، وممن يجالس أهل الصّلاح[1].

[1] لمزيد: رسالة (من تجالس) للجعيثين، نشر دار الوطن.

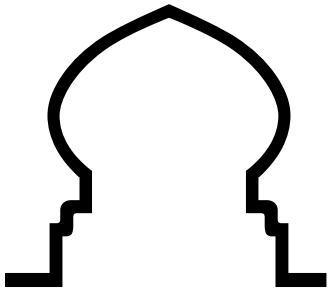

النافذة السادسة

العلم نور في دياجير الحياة

رأى رجلٌ مع **الإمامِ أحمدَ** محبرة فقال: يا أبا عبدالله قد بلغت المبلغ وأنت إمام المسلمين فإلى متى؟ فقال كلمته المشهورة: "مع المحبرة إلى المقبرة".

★ ★ ★

وقيل **لعبدالله بن المبارك**: إلى متى تطلب العلم؟

فقال: "حتى الممات، لعلَّ الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد".

★ ★ ★

وهذا القاضي المشهور أبو يوسف **يعقوب بن إبراهيم الأنصاري**، تلميذ أبي حنيفة، يزوره تلميذه إبراهيمُ بن الجرّاح وهو في مرض الموت فيدارسه مسألة: "أيهما أفضل في رمي الجمار ماشياً أم راكباً" في قصة معروفة.

★ ★ ★

أيها الموفق: بهذا المنطق بلغوا رُتَب السيادة..

ما كانوا يعرفون وقتاً محدداً لطلب العلم..

ولا عمراً معيَّناً للتعلم.

كانوا مع المحبرة إلى المقبرة..

ومع الدواة إلى الممات.

وهكذا يجب أن يتربى أبناؤنا..

على حبِّ العلم، واحترامِ الكتاب لا رميه عند انتهاء الاختبارات بلا شفقة ولا هوادة!

فرحتك يا بني حين تنجح مشروعة؛

لكنَّ الفرحة الحقيقية تتجدد مع كل معلومة نافعة تحصلها، أو موهبة تنميها، أو إبداع تطوره.

★ ★ ★

أيها الفطن: العلمُ عبادة، ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾، وإنّ طلبَ العلم أفضلُ من الصلاة النافلة كما يقول الشافعي، وإنَّ قدراتك مخبوءة تحت ركام الكسل وعدم المحاولة.

رأى أحد المشايخ في بعض قرى العجم فتىً فصيحَ اللسان حَسَنَ البيان، فسأله عن ذلك فقال: "كنت أَعْمَدُ كلَّ يومٍ إلى خمسين ورقة من كتب الجاحظ أرفع بها صوتي في قراءتها، فما مرّ زمنٌ يسيرٌ حتى صرتُ إلى ما ترى".

★ ★ ★

أيها الغالي:

- إياك أنْ يمنعك من طلب العلم تقدم سنك، فقد رُوي أنَّ عيسى عليه السلام سئل: إلى متى يحسن العلم؟ فقال: "ما حَسُنَت الحياة"!

- إياك أنْ يمنعك صِغَرُ سنِّ المعلم، فقد كان حكيم بن حزام يتعلم من معاذ بن جبل رضي الله عنهما فقيل له: تقرأ على هذا الغلام الخزرجي؟! فقال: "إنما أهلكنا التكبر".

إياك أنْ يمنعك ما قد حزته من العلم، فلو كان ذلك سائغاً لاكتفى كليم الله موسى عليه السلام بما عنده وما رحل إلى الخضر.

إياك أنْ يمنعك ظنك أنَّ النّاس لا يحتاجون لمثلك فتكون كذلك الأنصاري الذي قال متحسراً بعد زمن: هذا الفتى أعقل مني، يعني ابن عبّاس في قصة معروفة.

اليوم شيءٌ وغداً مثلُهُ * مِنْ نُتَفِ العلمِ التي تُلتقطْ
يُحَصِّل المرءُ بها حكمةً * وإنما السيلُ اجتماعُ النُّقَطْ

إياك أنْ يمنعك وَهْمُك أنَّ الظروفَ غيرُ مُهَيَّأة الآن، وغداً أو بعده ستتحسن. تلك أنشودةُ الفاشلين، وشعارُ الجاهلين، ونغمةُ البطّالين ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

إذا كان يُؤذيك حَرُّ المصيفِ * وَيُبْسُ الخريفِ وبردُ الشِّتَا
ويُلهيك حُسْنُ جمالِ الرَّبيعِ * فَأَخْذُكَ للعلمِ قُل لي مَتى؟!

★ ★ ★

ختاماً: أتفق معك في أنَّ طريق التحصيل مليءٌ بالمشاقّ، وهجرِ اللذات، ولا بد فيه من صبرٍ ومصابرة، ولكنّ السعادةَ هناك! هناك بعد جسر المشقة.

- المكارم منوطة بالمكاره،

- والعلم لا ينال براحة الجسم،
- والنعيم لا يدرك بالنعيم،
- وحتى تتعلم لا بدَّ أن تتألم.

★ ★ ★

قيل لسقراط: كيف حصّلت هذا العلم؟

قال: بإنفاقي من الزيت أكثر مما شربت من الماء[1].

★ ★ ★

[1] لمزيد: أبواب في العلم والدعوة والتربية، إبراهيم الدحيم، دار طيبة.

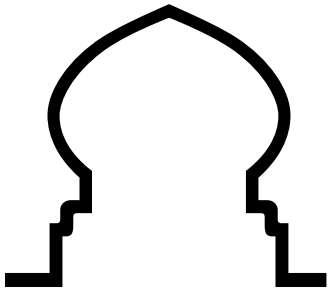

النافذة السّابعة

أوساهير

أرسلتِ اليابانُ في بَدْءِ حضارتها بعوثاً دراسيّة إلى ألمانيا.

كان الطالب الياباني "أوساهير" أحد المبتعثين، وله قصة عجيبة يرويها بنفسه فيقول[1]:

"لو أنني اتبعتُ نصائحَ أستاذي الألماني ما وصلت إلى شيء. كانت حكومتي قد أرسلتني لدراسة أصول الميكانيكا. كان حلمي أنْ أصنع محركاً صغيراً!

كنت أعرف أنَّ لكل صناعة وحدة أساسية هي "الموديل"؛ مَنْ عرفه وضع يده على سِرِّ الصناعةِ كلِّها.

وبدلاً من أن يأخذني أساتذتي إلى المعمل؛ أخذوا يعطونني كتباً أقرؤها حتى عرفتُ نظريات الميكانيكا كلها لكنْ بقيت أمام المحرك عاجزاً تماماً.

★ ★ ★

وفي ذاتِ يومٍ قرأتُ عن معرضِ محركاتٍ إيطاليّة.

انطلقت إليه ووجدتُ فيه محركاً بقوة حصانين، ثمنه يعادل مرتبي كله. دفعت المرتب بلا تردد.

كان ثقيلاً! حملتُهُ إلى حجرتي ووضعتُهُ على المنضدة، وتسمرتُ أنظر إليه كأني أنظر إلى تاج من الجوهر!

---

[1] القصة باختصار يسير.

قلت لنفسي: هذا هو سر قوة أوروبا، لو استطعت صناعة محرك مثله لغيّرت تاريخ اليابان.

طاف بي خاطر يقول: هذا المحرك عبارة عن قطع مختلفة الأشكال، لو فككتُ هذه القطع ثم أعدتُ تركيبها ثم شغّلته فاشتغل أكونُ قد قطعتُ الخطوة الأولى في الاتجاه الصحيح.

★ ★ ★

على رفوف مكتبتي وجدتُ الكتاب الذي به الرسوم الخاصّة بالمحركات. بدأتُ العمل! رسمتُ المحرك بكل دقة، ثم بدأتُ تفكيك القطع، وكلما فككتُ قطعةً رسمتها بغاية الدقة وأعطيتها رقماً.

انتهيتُ من العمل بعد ثلاثة أيّام لا آكُلُ في اليوم إلا وجبة واحدة، ولا أنام إلا وقتاً يسيراً. ولما أعدت تركيب القطع وتشغيلها كاد قلبي يقف من الفرح عندما سمعت صوت المحرك يشتغل.

حملتُ الخبر إلى رئيس البعثة فقال لي: "الخطوة الثانية هي الأهم! سآتيك بمحرك متعطل وعليك أن تجعله يعمل".

★ ★ ★

وعندما أتاني بالمحرك أمضيت عشرة أيّام من العمل المضني، عرفتُ خلالها أنَّ فيه ثلاثَ قطعٍ متآكلة. صنعتُ غيرها بيديَّ بالمطرقة والمبرد فاشتغل المحرك وكاد قلبي أن يقف من الفرح.

وعندما أخبرت رئيس البعثة قال لي: "الخطوة الثالثة هي الأهم! عليك أن تصنع قطع محرك كامل ثم تركبها وتصنع منها محركاً".

★ ★ ★

ولتحقيق هذه الخطوة تنازلتُ عن رسالة الدكتوراه التي ذهبتُ من أجلها. التحقتُ بمصانع صهر الحديد والألمنيوم والنّحاس.

تحولتُ إلى عامل يلبس بذلة زرقاء، ويقف صاغراً أمام عامل الصهر. كنتُ أطيع أوامره كأنه سيد عظيم! كنت أخدمه وقت الأكل مع أنني من أسرة عريقة، لكنّ ذلك يهون لأني كنت أخدم اليابان، وكل شيء في سبيل اليابان يهون!

أمضيتُ ثمان سنوات أعمل خلالها ما بين عشر إلى خمس عشرة ساعة في اليوم، وآخذ أحياناً نوبات حراسة!

★ ★ ★

علم حاكم اليابان "الميكادو" بأمري فأرسل لي خمسة آلاف جنيه من ماله الخاص، اشتريت بها أدوات مصنعِ محركاتٍ كاملة. وضعتُ راتبي كله قيمةً لشحنها إلى اليابان.

وصلتُ إلى مدينتي في اليابان فأرسل لي "الميكادو" طلباً للقائه. قلت لهم: "لن أستحق مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنع محركات كاملاً".

استغرق الأمر مني تسع سنوات!

وفي يوم من الأيام حملتُ مع مساعديَّ عشرةَ محركاتٍ صُنِعَت في اليابان قطعةً قطعة، حملناها إلى قصر "الميكادو".

وعندما قابلناه انحنى يحيينا، وابتسم وقال: "هذه أعذب موسيقى سمعتها في حياتي! صوتُ محركاتٍ يابانيّة خالصة، لقد ملكنا الموديل وهو سر قوة الغرب، نقلناه إلى اليابان، لقد نقلنا قوة أوروبا إلى اليابان"". انتهى كلام الطالب.

★ ★ ★

أخي القارئ:

هذه **قصة ملهمة**، فيها علو همة، وسعي دؤوب لتحقيق هدف رسمه صاحبه وضحّى من أجله بكل شيء حتى وصل لتغيير تاريخ اليابان الصناعي.

الحق ضالة المؤمن،

والباب مفتوح على مصراعيه لكل راغبٍ في العلياء في أيِّ مجالٍ نافعٍ دنياً ودين.

إذا أعجبتكَ خصالُ امرئٍ فَكُنْهُ يَكُنْ منهُ ما يُعجبكْ
فليسَ لدى المجدِ والمكرُماتِ إذا جئتها حاجبٌ يَحْجُبُكْ[1]

★ ★ ★

[1] لمزيد: علو الهمة، محمد المقدم، مكتبة الكوثر.

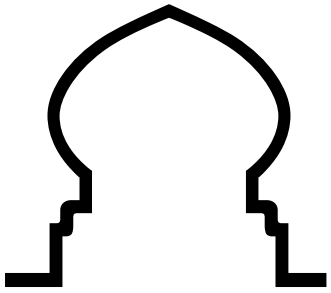

النافذة الثّامنة

مِن الدِّين الحذرُ من الدَّين

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه:

حدثنا أبو عاصم، عن يزيد بن أبي عبيد، عن سَلَمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ أُتيَ بجنازة ليصلي عليها، فقال: (هل عليه من دَين؟) قالوا: لا، فصلّى عليه. ثم أُتي بجنازة أخرى فقال: (هل عليه من دين؟) قالوا: نعم، قال: (فصلوا على صاحبكم). قال أبو قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "عليَّ دينه يا رسول الله"، فصلّى عليه.

★ ★ ★

أخي القارئ: هاك نظرة على سند الحديث ومتنه.

أما سلسلة السند فرجالها:

- **أبو عاصم** رَحِمَهُ اللَّهُ: شيخ البخاري، واسمه الضحّاك بن مخلد، ثقةٌ ثبتٌ، مات سنة ٢١٢هـ عن تسعين سنة، وكان زاهداً عالماً فقيهاً ذا دِيانة وتقوى.
- **يزيد بن أبي عُبيد** رَحِمَهُ اللَّهُ: مولى سلمة بن الأكوع. حجازيٌّ تابعيٌّ ثقةٌ كثيرُ الحديث، مات سنة بضع وأربعين ومائة.
- **سلمة بن الأكوع** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من أهل بيعة الرضوان، كان شجاعاً رامياً يسبق الفرس شدًّا على قدميه. روى سبعة وسبعين حديثاً، وتوفي سنة أربع وسبعين.

★ ★ ★

ورجال الإسناد الثلاثة اتفق أصحاب الكتب الستة على إخراج أحاديثهم.

★ ★ ★

وهذا الحديث من ثلاثيّات البخاري –أي أنَّ بينه وبين النبي ﷺ ثلاثة أشخاص– وهو أعلى أسانيد البخاري.

★ ★ ★

روى البخاريُّ هذا الحديثَ في باب الكفالة، وترجم له بقوله: "بابُ من تكفّل عن ميِّتٍ ديناً فليس له أن يرجع". وقد أراد البخاري بهذا لفت الأنظار إلى أنه لو كان لأبي قتادة أنْ يرجعَ عن الكفالة ما صلَّى النبي ﷺ على الرجل المدين حتى يُوفي أبو قتادة الدَّين، لاحتمال أن يَرجع فيكون النبي ﷺ قد صلّى على مدينٍ دينُه باقٍ عليه، فدلّ على أنه ليس له أن يَرجع.

وهذا من فقه البخاري في عناوين أبوابه، وفيها فقه عظيم.

★ ★ ★

اشتمل هذا الحديث على ذكر جنازتين:

الأولى لسليم من الدَّين صلّى النبي عليه.

والثانية لمدين أراد ترك الصلاة عليه لولا تحمل أبي قتادة عنه.

وقد ذُكرت جنازة **ثالثة** من طريق آخر لمدينٍ تَرك وفاءً، وقد صلّى عليه.

★ ★ ★

وقد كان النبي ﷺ يُؤتى بالرجل المتوفَّى عليه دينٌ فيسأل هل ترك لدينه وفاءً؟ فإنْ حُدِّثَ أنه ترك وفاءً صلَّى عليه، وإلا قال للمسلمين صلوا على صاحبكم، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المسلمين فترك ديناً فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته).

★ ★ ★

إنَّ في ترك النبي ﷺ الصلاة على أصحاب الديون حثًّا للنَّاس على قضاء ديونهم في حياتهم، وإبراء ذممهم.

وفيه التحذير من تحمل الديون، فإنها شغل للذمم لا تكفره حتى الشهادة في سبيل الله، ولا تذهب تبعته إلا بتسديدِ الدَّين في الدنيا أو وفائِهِ في الآخرة من الحسنات.

فليكن الفطن من هذا على حذر.

★ ★ ★

وفي الحديث بيان ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الأخلاق الفاضلة من الرأفة والشفقة والرحمة لبعضهم البعض، فهذا أبو قتادة رضي الله عنه يتحمل دين أخيه المسلم لتحصل له بركة وشفاعة النبي وصلاته عليه.

وأبو قتادة هو النعمان بن ربعيّ الأنصاريُّ السَّلَمي المدني، شهد أحداً وما بعدها، ومات سنة أربع وخمسين.

★ ★ ★

وفي الحديث بيانٌ لحقٍّ من حقوق المسلم على إخوانه، وهو شهود جنازته. والمؤمن أحوج ما يكون إلى هذا الحق لينتفع بشفاعة إخوانه ودعائهم له. وفي هذه العبادة أجر عظيم، فقد قال النبي ﷺ: (من صلّى على الجنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان)، قيل وما القيراط يا رسول الله؟ قال: (مثل جبل أحد)[1].

★ ★ ★

[1] لمزيد: عشرون حديثاً من صحيح البخاري دراسة أسانيدها وشرح متونها، للشيخ العلامة عبدالمحسن بن حمد العبّاد.

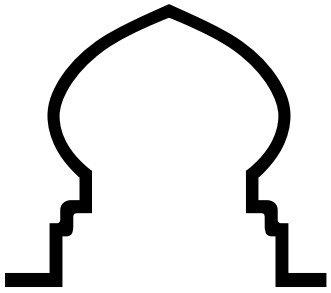

النافذة التّاسعة

دعوةٌ للإنصاف

في عام الجماعة سنة إحدى وأربعين قامت الدولة الأموية على يد الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان ﷺ (ت ٦٠ هـ)، وسقطت على عهد مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ، وكان هذان الخليفتان من الرجال العظام في سلسلة الخلفاء الأمويين الأربعة عشر الذين كان منهم عبدالملك بن مروان والوليد بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز وهشام بن عبدالملك.

هذه الدولة التي حكمت إحدى وتسعين سنة كان عصرها من أبهى العصور بعد الخلافة الراشدة في جميع المجالات.

★ ★ ★

ففي عهد **معاوية بن أبي سفيان** ﷺ طُورت الدواوين التي كان الفاروق ﷺ قد استحدثها، وزيد عليها.

وفي عهده أُسِّسَت المدن وعُمِّرت البلاد. فأسس عقبة بن نافع مدينة القيروان التي ظلت مركزاً من أعظم مراكز الحضارة الإسلامية. وحُفرت الآبار وشُقَّت القنوات ووُسِّعت شبكات الري وأُقيمت السدود والقناطير، كما أُنشئت الأساطيل الحربيّة، فبلغ أسطول الشام ١٧٠٠ سفينة. وفي عهده غزا عقبة بن عامر جزيرة رودس.

★ ★ ★

وفي عهد **يزيد بن معاوية** فتحت خوارزم وبخارى.

★ ★ ★

وفي عهد **عبدالملك بن مروان** –وهو المؤسس الثاني للدولة الأموية– عُربت الدواوين، وطُوِّرت النظم الإدارية كديوان البريد ونظام الحجابة، وضُربت أول عملة إسلامية، وأُدخل نظام التجنيد الإجباري مما مكّن من مواصلة الفتوح وضم شمال إفريقية وبلادِ الأندلس وكثيرٍ من مدن الشّرق.

وفي عهده أُنشئت مدينة واسط بالعراق، ومدينة أردبيل وبرذعة، ومدينة حلوان بمصر، وَبُنِيَ مسجدُ قبة الصخرة بالقدس سنة ٧٢ (وهنا تشويه تاريخي بغيض يزعم أنَّ عبدالملك بن مروان إنما فعل ذلك ليصرف النّاس عن الحج إلى مكة).

وفي عهده اتسعت رقعة الفتوحات الإسلامية فشملت الصّغد وتُركستان وترمذ شرقاً، وقَرْطاجَنَّة والمغرب كله، وأُنشئت مدينة تُنس وأَضحت من كبريات مدن المغرب الإسلامي.

★ ★ ★

ثم جاء عهد **الوليد بن عبدالملك** ليستمر التطوير الإداريُّ والتجنيدُ الإجباريُّ والعناية بالطرق والعمارة والبناء لا سيما بناء المستشفيات والمساجد.

وفي عهده وُسِّعَ المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى، وبُني الجامع الأموي بدمشق وكان أعظم المآثر العمرانية الأموية، كما بُني الجامع الأموي في حلب.

★ ★ ★

ثم جاء عهد **سليمان بن عبدالملك** فبنى الرّملةَ بفلسطين، وأَحسن إلى الرّعية أيّما إحسان؛ فردّ المظالم وفَكَّ الأسرى وأَطلق المساجين وأَحسن إلى الفقراء.

★ ★ ★

ثم جاء العهد الزاهر إبّان خلافة **عمر بن عبدالعزيز** رَحِمَهُ اللَّهُ فأبطل سبَّ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الخطبة، وفي هذا يقول كُثَيِّر عزّة:

وَلِيتَ فلم تَشْتُمْ عليًّا ولمْ تُخِفْ بَرِيًّا ولم تَتبع مقالةَ مُجرِمِ

أقامَ موازين العدل من جديد، ونهضَ بإصلاحٍ ماليٍّ فريد، ونشرَ الدعوة إلى الإسلام، ورفقَ حتى بخصوم الدولة، وكان مضرب المثل في الزهد والتعفف عن أموال الرّعية.

★ ★ ★

ثم جاء عهد **هشام بن عبدالملك** فطوّر نظام القضاء، وأنشأ مدينة الرَّصافة بالعراق، وقوّى الثغور، وأحكم سياسة الإصلاح النّقدي.

★ ★ ★

كانت سوقُ الجهاد قائمةً زمن بني أميّة، لا شغل لهم إلا ذلك، فَعَلَت كلمةُ الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، برها وبحرها، أذلوا الكفر وأهله، وكان في جيوشهم الصالحون والعلماء وكبار التابعين.

بلدانٌ عريقةٌ أُضيفت إلى الخريطة الإسلاميّة في زمنهم. خذ مثلاً: هَراةَ وكابُل وبلادَ السِّند وتُركستان وبُخارى وسمرقند وخراسان والصَّغد وطشقند، بل وقف قتيبة بن مسلم على أبواب الصين من جهة الغرب، وجعل محمد بن القاسم لا يمر بمدينة إلا افتتحها حتى وصل إقليم الهند وافتتحه.

هذا في الشرق! أما في الغرب فقد دوّخ عقبة بن نافع البلدانَ والمدنَ حتّى وطئت قدماه مياه المحيط الأطلسي. وتابع المسيرة موسى بن نصير وطارق بن زياد فضمّا بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال).

★ ★ ★

وفي عهد الخلافة الأموية ازدهرت الحياة الفكريّة، وأُسست العلوم بتأصيل صحيح واجه الأفكار الوافدة، كما واجه محاولات إضعاف اللغة العربيّة.

★ ★ ★

وبعد، فإنَّ ما سبق ليس إلا محاولةً للقول بأنَّ العهد الأموي كان مليئاً بالجوانب المشرقة المتلألئة التي ما فتئ بعض المؤرخين الموتورين يعملون جاهدين على طمسها، أمثال اليعقوبي والدِّينَوَري والمسعودي صاحب مروج الذهب وابن عبدربه في العقد الفريد وأبو الفرج الأصفهاني في الأغاني والكامل في المبرد.

على أنَّ هناك مصادرَ لزمت الحياد إلى حدٍّ كبير. منها على سبيل المثال: تاريخ خليفة بن خيّاط، وتاريخ الأمم والملوك للطبري، وجوامع السيرة لابن حزم، والعواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي، والكامل في التاريخ لابن الأثير، والعبر في أخبار العرب والعجم والبربر لابن خلدون.

والإنصاف عزيز، والمؤمن إنْ كتب راقب الله فصدق في نقل الأحداث، ولم يحمله تعصبٌ أو هوىً على ظلم النّاس وتشويه سيرهم[1].

★ ★ ★

[1] لمزيد: بنو أمية في التاريخ، عبدالحليم عويس.

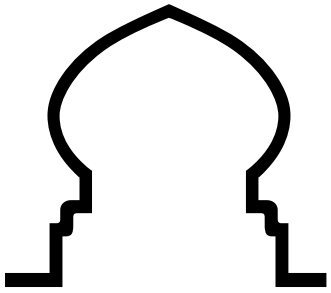

النافذة العاشرة

الفُلّاني

عَلَمٌ من رموز العلم الذين لم يحظوا بحقهم اللائق في التعريف.

درَّسَ بالمسجد النبوي خمسين عاماً نشرَ فيها أريج العلم والسُّنَّة بين جنبات وأروقة خير المساجد بعد المسجد الحرام.

★ ★ ★

إنّه الشيخ **عمر فلاتة** رَحِمَهُ اللَّهُ. عمر بن محمد بكر الفُلاّني، نسبةً إلى قبيلته الإفريقيّة، المشهور بفُلاّتة.

هاجر أبواه من إفريقيا إلى مكة المكرمة، ومكثا في الطريق سنة كاملة، ولما صارا على مقربة من مكة ولد الشيخ عمر، وذلك سنة ١٣٤٥هـ، ولذا كان يقول: "شاء الله أن يبدأ أبوايَ الرحلة وهما اثنان وأن تنتهي وهم ثلاثة!".

وبعد عام من ولادته انتقل مع أبوية إلى المدينة المنورة، وبها نشأ وترعرع، ودخل كُتّاب العريف محمد بن سالم، ثم دَرَسَ في دار العلوم الشرعية ونال شهادتها الابتدائية، ثم نال الشهادة الابتدائية من مديرية المعارف العموميّة عام ٦٣، ثم دَرَسَ في دار الحديث ونال شهادتها العالية سنة ٦٧.

★ ★ ★

لازم الشيخَ **عبدالرحمن بن يوسف الإفريقي** الذي كان ناظرَ دارِ الحديث، ثم دَرَّسَ الشيخُ بهذه الدار، ولما توفي شيخه ناظرَ الدّارِ أصبح هو النّاظرَ عليها.

★ ★ ★

كان رَحِمَهُ اللَّهُ على عقيدة السّلف، حريصاً على الدليل، مقتفياً آثار السلف الصالح، شديد الكراهية للمناهج المخالفة.

وأما دعوته فكان له منهج مسدد حيث تميز بالفصاحة والبلاغة وحُسن الأسلوب والصدق في النصح، يَشُدُّ الحاضرينَ بروعة أسلوبه وغزارة علمه وجودة إلقائه وقوة تمكنه من المادة العلمية.

وكان عضواً في إدارة توعية الحُجّاج التابعة لرئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد منذ إنشائها عام ٩٢ إلى أن توفي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكانت الجامعة الإسلامية تنتدبه للدعوة في بلاد مختلفة في الإجازة الصيفية.

★ ★ ★

وفي المسجد النبوي جلس للتدريس سنة ١٣٧٠هـ، واستمر إلى أواخر عام ١٤١٩هـ حيث وافاه لأجل. وبهذا يكون قد أمضى قرابة نصف قرن في كرسي التدريس في المسجد النبوي قريباً من الروضة. ولا يكاد يماثله في هذه المدة أحد إلا الشيخ أبا بكر الجزائري رحمه الله تعالى.

★ ★ ★

عمل مديراً لدار الحديث بالمدينة ابتداء من سنة ٧٧ حتى سنة ٨٥ حيث انتقل إلى الجامعة الإسلامية في منصب الأمين العام المساعد، ثم الأمين العام، ثم أستاذاً مساعداً في كلية الحديث، ثم مديراً لمركز الدعوة بالجامعة، ثم أسس بها مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، وتولى إدارته حتى تقاعد.

وكان حين انتقل إلى الجامعة الإسلامية مستمراً في الإشراف على دار الحديث بالمدينة، وكانت الدار قريبة من المسجد فدخلت في إحدى توسعاته، فاجتهد رَحِمَهُ اللَّهُ في البحث عن مكانٍ جديدٍ لها وتمويلٍ لبنائها، وقد يسّر الله ذلك فبنيت على أحسن تصميم.

★ ★ ★

حج رَحِمَهُ اللَّهُ ثلاثاً وخمسين حجة.

وكان معروفاً بطلاقة الوجه، وحسن استقبال الناس وإكرامهم على قلة ماله وضعف حاله، لكنه كان مبادراً لخدمة الناس بما يستطيع، ذا تواضع جمّ، يبادر لخدمة من هم أصغر منه سنًّا وأقلّ قدراً.

وكان الشيخ صاحب طرافة ودعابة. دخل على موظف في إحدى الإدارات فتلكأ في خدمته، وكانت معاملته في أمر نظامي يسير، فقال الشيخ للحاضرين: إنها غلطتي يا إخوان! أنا الذي عقدت لوالد هذا الرجل على أمه! فضحك الحضور، وقام الموظف فبادر بخدمة الشيخ.

★ ★ ★

أصيب الشيخ بمرض نُوِّم بسببه في إحدى مستشفيات الرياض، ثم طلب الشيخ إخراجه ونقله إلى المدينة، وكان ذلك يوم الثلاثاء.

فلما كان اليوم التالي (يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي القعدة عام ١٤١٩هـ) انتقل إلى رحمة الله تعالى، وصُلِّي عليه في المسجد النبوي الذي درّس فيه خمسين عاماً، ودفن في البقيع، وشهد جنازته خلق كثير من الحُجّاج وغيرهم، رحمه الله رحمةً واسعة[1].

★ ★ ★

[1] لمزيد: الشيخ عمر بن محمد فلاتة : وكيف عرفته، عبدالمحسن العباد البدر.

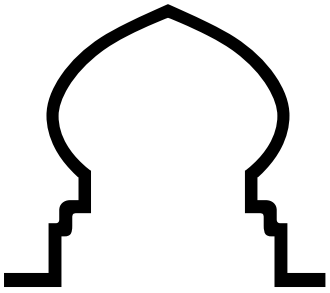

النافذة

الحادية عشرة

ذُو النّور

حدَّثَ الطفيلُ بن عمرو الدّوسي ﷺ أنه قدم مكة قبل أنْ يسلم فتلقاه رجالُ قريشٍ يحذرونه النبي ﷺ ويخوفونه من أن يسمع منه شيئاً؛ إذ قوله سحر يفرق بين الرجل وأبيه وزوجته وأخيه بزعمهم.

فما زالوا به حتى وضع القطن في أذنيه، ثم غدا إلى المسجد فرأى النبي ﷺ قائماً يصلي عند الكعبة، فعاد إلى نفسه بالملامة، وأنه رجل لبيب شاعر لا يخفى عليه حَسَنَ القول من سَيِّئه، فنزع القطن وسمع قراءة النبي عليه الصلاة والسلام وقال: "سبحان الله! ما سمعتُ كاليوم لفظاً أحسن ولا أجمل".

★ ★ ★

فلما دخل النبي ﷺ بيته تبعه الطفيل وقصّ عليه خبره كلَّه، فعرض عليه النبيُّ الإسلامَ وأسمعه القرآن فأسلم وطلب أنْ يعود إلى قومه داعيةً وأن تُجعل له آية، فدعا له النبي.

فلما اقترب من ديار قومه وقع نورٌ بين عينيه، فدعا الله أن يحوله لموضع آخر لئلا يظن قومه أنها مُثلة وعقوبة، فتحول النور إلى سوطه.

ثم دعا أباه وأمه وزوجه فأسلموا، لكنَّ قومه تأبوا عليه، فعاد إلى النبي الكريم ليدعو عليهم، لكنّه رفع يديه وقال: (اللهم اهد دوساً)، فعاد الطفيل إلى

قومه، وكان أن أسلم منهم ثمانون أو تسعون بيتاً عاد بهم إلى المدينة والنبي في خيبر فشهدوها.

وبعد الفتح أرسله النبي الكريم فحرّق ذا الكفين؛ صنمٌ لعمرو بن حممة.

★ ★ ★

ومات النبي الكريم وارتدت العرب وغدا الطفيل إلى اليمامة مجاهداً رفقة ابنه عمرو، ورأى في المنام أنَّ رأسه حلق، وأنَّ طائراً خرج من فمه، وأنَّ امرأة أدخلته في فرجها، وأنَّ ابنه يهرول نحوه لكنْ يُحبس عنه.

قال الطفيل لمن حوله: ما تأويلها؟

قالوا: خيراً.

قال: كلاّ! فرأسي سيقطع، وروحي ستخرج، والأرض ستضم جدثي، وابني سيحاول إدراك الشهادة وسينالها فيما بعد.

وكان أنْ حقق الله تعبير الرؤيا كما عبّرها الطفيل ﷺ، ومات ابنه بعد ذلك يوم اليرموك.

★ ★ ★

كم في هذه القصة من دروس وعبر!

۞ القرآنُ وتأثيره في نفوس السّامعين:

أثَّرَ في نفس الطفيل فأسلم،

وأَثَّرَ في نفس عتبة بن ربيعة لما سمع أول فصلت،

وأَثَّرَ في نفس النجاشي لما سمع مفتتح مريم،

وأَثَّرَ في جِنِّ تهامة لما سمعوه من النبي ﷺ بنخلة فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

- أعداء الدين يعرفون حقيقة أثر القرآن في النفوس حق المعرفة، ولذا تراهم **يسعون لصرف المسلمين عنه** بكل ممكن.
- قريشٌ ظهرت للطفيل في لباس الناصح الأمين. وهكذا كل عدو للإسلام والمسلمين **يُعطيك من معسول الكلام** وجميل الألفاظ وبرّاق المصطلحات. إمامهم فرعون حين قال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾. وشيخهم إبليس، وقد علمنا صنيعه مع الأبوين.

★ ★ ★

قصة الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه مليئةٌ بدرر الفوائد ونفائس الدروس، وتصلح أن تكون نبراساً لنا في الحياة[1].

★ ★ ★

[1] لمزيد: مع سيد دوس، المرزوقي، نشر دار المسلم.

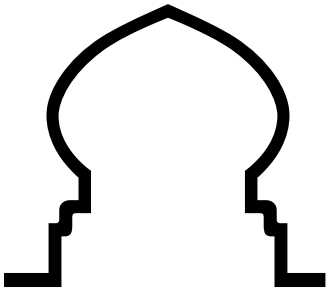

النافذة
الثانية عشرة

أحبُّ الاعمال

على قدر اجتهاد العبد في تحقيق العبوديّة لله تكتمل محبته لربه، وتتحقق محبة الربِّ له.

وكلُّ الأعمال الصالحة يحبها الله ويرضاها، إلا أنها تتفاوت في الفضل والحب عنده ﷻ.

والنّاس متفاوتون في فعل هذه الأعمال بحسب توفيق الله تعالى لهم، ثم بحسب معرفتهم بفضائل هذه الأعمال.

ولذا كان من المهم أنْ يحرصَ المسلمُ على معرفة الأعمال الفاضلة، وعلى فعلها. ولكن قبل ذلك **يلزم الحرص على أمرين**:

الأول: أنْ يكون العبد مخلصاً، يبتغي بالعمل وجه الله ورجاءَ ما عنده.

الثاني: أنْ يكون محافظاً على ثواب أعماله، وذلك بالبعد عمَّا يحبطها كالرياء والمنِّ والأذى والعُجب وإتيان الكهنة وغير ذلك.

★ ★ ★

ومن الأعمال التي جاءت السّنّة ببيان فضلها:

(١) الإيمان بالله تعالى، وإفراده بالعبادة، وتعليق القلب به وحده.

(٢) صلة الرحم بالمال والزيارة والدعاء وطلاقة الوجه ودفع الأذى.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب، مع العلم والرفق والصبر.

(٤) أداء الفرائض، فما تقرب العبد إلى ربه بشيء أحبَّ إليه من الفرائض. والفرائض إما فعليّة كالوضوء والصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد، أو تركيّة كاجتناب الزنا والربا وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير. وأحبُّ الفرائض الصلاة على وقتها.

(٥) الوتر، فقد قال النبي ﷺ: (إنَّ الله وتر يحب الوتر) رواه مسلم. وعند الترمذي قوله ﷺ: (إنَّ الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن).

(٦) بر الوالدين، فالسعيدُ من رزق برهما في حياتهما وبعد موتهما، والشقي صاحب العقوق.

(٧) ذكر الله تعالى بالقلب متفكراً في ملكوته ومخلوقاته، وباللسان ذكراً مطلقاً ومقيّدا.

(٨) حُسن الخلق، فأحب عباد الله إليه أحسنهم خلقاً، وليس شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق، وإنَّ صاحبه ليبلغ درجة الصائم القائم.

(٩) أن يكون المرء تقيًّا غنيًّا خفيًّا.

والتقيّ هو المطيع لربه،

والغنيّ هو غنيُّ النفس،

والخفيُّ هو الذي لا يريد علواً في الأرض ولا شهرة.

(١٠) أن يكون المرء سمحاً عفوًّا رفيقاً حيِّيًّا.

السمح: هو السهل في بيعه وشرائه وقضائه وسائر شؤونه.

العفو: هو الذي يكظم الغيظ ويسامح.

الرفيق: هو اللطيف الذي يريد بالناس اليسر، ولا يمنع أن يكون شديداً في موضع الشدة.

الحيي: هو الذي يستحيي من نفسه ومن النّاس.

(١١) الراضي بقضاء الله وقدره.

(١٢) من إذا عمل عملاً أتقنه وجوّده، سواءً كان عملاً لنفسه أو لغيره.

★ ★ ★

وبعد، فما سبق جملةٌ من الأعمال المحبوبة إلى الله تعالى، والموفق من كان له في كلِّ غنيمةٍ سهم[١].

★ ★ ★

[١] لمزيد: أحب الأعمال إلى الله، أسماء الرويشد، نشر مدار الوطن.

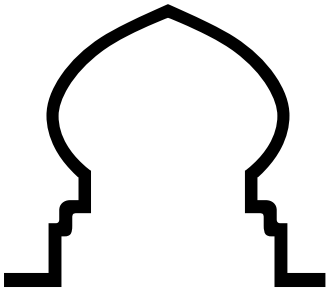

النافذة
الثالثة عشرة

على الرأس والعين

عَلِمَ السَّلفُ الصَّالحُ رضوان الله عليهم مكانةَ سُنَّةَ النبي ﷺ فجعلوها على الرأس والعين.

عرفوا لها قدرها، تعلموها وعلموها، دافعوا عنها، حكَّموها وتحاكموا إليها.

★ ★ ★

جاءت جَدّةٌ إلى **الصِّدِّيق** رضي الله عنه تسأله إرثها، فقال: "ما أعلم لك شيئاً في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولكني سأسأل النّاس".

ولما أُخبر أنَّ الرسول ﷺ قضى لها بالسدس؛ قضى به من فوره.

★ ★ ★

وعمر رضي الله عنه المحدَّثُ الملهمُ أشكل عليه حُكم إملاص المرأة –وهو سقوط جنينها بالجناية عليها– فسأل الأصحاب، فشهد محمد بن مسلمة والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قضى فيها بِغُرَّةٍ عبدٍ أو أَمَة، فقضى به من فوره.

★ ★ ★

وعثمان رضي الله عنه ذو النورين توقَّفَ في المعتدة بوفاة زوجها حتى شهدت فريعة بنت مالك رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ أمرها أنْ تَعْتَدَّ في بيت زوجها، فقضى به من فوره.

★ ★ ★

وعليٌّ ﷺ قيل له إنّ عثمان ﷺ ينهى عن التمتع في الحج ويأمر بالإفراد، فأحرم بالحج والعمرة معاً وقال: "لا أدع سُنَّةَ رسولِ الله ﷺ لقولِ أحدٍ من النّاس".

★ ★ ★

وفي نفس المسألة احتجوا على **ابن عبّاس** ﷺ بقول أبي بكر وعمر ﷺ فقال: "يوشك أنْ تنزلَ عليكم حجارة من السماء! أقول قال رسول الله ﷺ وتقولون قال أبو بكر وعمر".

★ ★ ★

وأحمدُ رحمه الله يقال له عن رجلٍ يتركُ الحديث ويأخذُ برأي سفيان الثوري رحمه الله فيقول: "عجبت لقومٍ عرفوا الإسنادَ وَصِحَّتَهُ يذهبون إلى رأي سفيان، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

★ ★ ★

وأيوب السختياني يُذكر عنده رجل يدعو للاقتصار على القرآن فيقول: "دعوه فإنه ضالّ".

★ ★ ★

وعبدالله بن عمر رضي الله عنهما يُحَدِّثُ بحديث: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله) فيقول ابنه –بدافعٍ من الغيرة–: والله لنمنعْهُنَّ، فيقبل عليه يسبه سبًّا سيئاً ويقول: "أقول قال رسول الله وتقول لنمنعهن؟".

★ ★ ★

وعبدالله بن مغفل المزني رحمه الله رأى قريباً له يَخْذِف –والخذْفُ جَعْلُ الحصاة الصغيرة بين أصبعين وقذفُها– فحدَّثه بنهي رسول الله ﷺ عن الخذف وإخباره أنه لا يصيد صيداً ولا ينكأ عدوًّا ولكن يفقع العين. ثم رآه بعدها يخذف فقال له: "أحدثك أنَّ رسول الله ﷺ ينهى عن ذلك ثم تعود له! والله لا أكلمك أبداً".

★ ★ ★

يقول **الشعبي** رحمه الله: "إنما هلكتم حين تركتم الآثار".

★ ★ ★

ويقول **الأوزاعي** رحمه الله: "إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديثٌ فإياك أن تقول بغيره، فإنه المبلغ عن الله تعالى".

★ ★ ★

ويقول **الزهري** رحمه الله: "كان مَنْ مضى مِنْ علمائنا يقولون الاعتصام بالسُّنَّة نجاة".

★ ★ ★

وما أجمل قول **مالك** رَحِمَهُ اللَّهُ: "كُلٌّ يُؤخذُ من قوله ويُردُّ إلا صاحب هذا القبر" ويشير إلى قبر المصطفى ﷺ.

★ ★ ★

والشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول لتلاميذه: "إذا رويتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً ثم رأيتموني خالفتُهُ فاعلموا أنَّ عقلي قد ذهب".

★ ★ ★

ويقول **أبو حنيفة** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين".

★ ★ ★

اللهم اجعلنا ممن يُعَظِّمُ سنة نبيك ﷺ، ويُقبل عليها ويَقبلها، ويُنزلها في محل الصدارة بعد كتابك.

اللهم وَجَنِّبْنَا سُبُلَ الذين تنكّبوا صراط الهدى، وأعرضوا عن سُنَّة المصطفى.

★ ★ ★

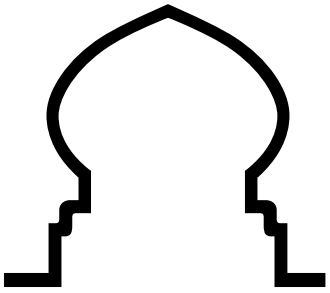

النافذة

الرابعة عشرة

البارقليط

أبو محمد عبدالله المورقيُّ التُّرجمان (المتوفى سنة ٨٣٢هـ) يحكي قصته العجيبة فيقول:

"اعلموا –رحمكم الله– أنّ أصلي من مدينة ميورقة –مدينة في إحدى الجزر جنوب إسبانيا– وكان والدي من أهلِ الحاضرةِ ولم يكن له ولدٌ غيري.

ولما بلغت السادسة من عمري أسلمني إلى معلمٍ من القسيسين قرأتُ عليه الإنجيل حتى حفظتُ أكثره في مدةِ سنتين على غير عادة قومي.

ثم تعلمتُ لغةَ الإنجيل وعِلْمَ المنطق في ست سنين.

★ ★ ★

ثم ارتحلت إلى مدينة "لاردة" –وهي إحدى مدن الأندلس– وكانت مدينةَ العلم عند النصارى، يجتمع فيها ألف وخمسمائة طالب يحكم فيهم القسيس الذي يعلمهم، فقرأتُ عليه الطبيعيات والتنجيم مدة ست سنوات، ثم قرأتُ عليه الإنجيلَ ولغتَهُ أربع سنوات.

★ ★ ★

ثم ارتحلت إلى مدينة "بلونية"، وهي مدينة كبيرة جدًّا، بها أكثر من ألفي طالب.

سكنتُ في تلك المدينة في كنيسةٍ لقسيسٍ كبيرِ السِّنِّ كبيرِ القدرِ عندهم، واسمه "نقلاو مرتيل"، رفيعِ المنزلة في العلم والدين والزهد. كانت ترد عليه الأسئلة الدينية من الآفاق من الملوك فضلاً عمّن دونهم، ومع تلك الأسئلة هدايا ضخمة يرجونه قبولها لتحصل لهم البركة.

قرأتُ عليه أصول النصرانية وأحكامها، وَخَدَمْتُهُ أعظمَ خدمةٍ حتى صيّرني من خواصّه، ووثق بي حتى دفع إليَّ مفاتيح مسكنه وخزائنه إلا مفتاح بيتٍ صغيرٍ كان يخلو فيه بنفسه.

لازمته طالباً وخادماً عشر سنين، ثم أصابه مرضٌ فتخلف عن مجلس الدرس. وكان الطلاب يتذاكرون مسائل العلم حتى أتوا على نصٍّ في الإنجيل أنه يأتي بعد عيسى نبيٌّ اسمه "البارقليط"، واختلفوا في المسألة واشتدَّ جدالهم ثم انصرفوا.

★ ★ ★

فلما أتيت مسكن القسيس وذكرتُ له اختلافهم وأجوبتهم غلّط كل الأجوبة، وذكر أنَّ معنى هذا الاسم الشريف لا يعرفه إلا الراسخون في العلم.

عندها بادرتُ قدميه أقبلهما وأسأله بحق خدمتي له عشر سنين وتفرغي لطلب العلم عليه أنْ يُحسن إليَّ بمعرفة هذا، فبكى وقال لي: يعز عليَّ خدمتك وجِدَّك في العلم ولكني أخشى أنْ يظهرَ ذلك فتقتلك النصارى.

عاهدته أنْ يَبقى ذلك طيَّ الكتمان.

فقال: اعلم أن البارقليط اسمٌ من أسماء نبي المسلمين، وعليه نزل الكتاب الرابع الذي ذكره دانيال، ودينه دين الحق، وملته هي الملة البيضاء المذكورة في الإنجيل.

قلت: يا سيدي وما تقول في دين هؤلاء النّصارى؟

قال: لو أقاموا على دين عيسى الأول لكانوا على الحق، ولكنهم بدّلوا وحرّفوا.

قلت: وما تنصحني؟

قال: بالدخول في الإسلام لتنجو في الدنيا والآخرة.

قلت: يا سيدي إنَّ العاقل لا يختار لنفسه إلا الحق فلم لا تدخل في الإسلام؟

قال: يا بني إنَّ الله لم يُطلعني على حقيقة ما أخبرتك به إلا بعد كبر سني ووهن جسمي، ولو كنتُ في سنك ما ترددت، ولكنَّ حُبَّ الدنيا رأسُ كل خطيئة، وأنت ترى ما لي عند القوم من رفعةِ جاهٍ وعِزٍّ وترفٍ ودنيا، وقد قاربتُ التسعين ولا أطيقُ الهوان على أيديهم، وإنْ كنتَ عاقلاً طالباً للنجاة فبادر للإسلام، ولا تظهر مما قلتُ لك شيئاً فإني سأُكذِّبك ويكونُ مصيرك القتل.

★ ★ ★

ثم دعا لي وودعني، فارتحلتُ إلى بلدي ميورقة، ثم سافرتُ إلى جزيرة صقلية، وأقمتُ بها خمسة أشهر، ثم ارتحلتُ إلى تونس وقابلتُ السلطان أبا

العبّاس أحمد، فسألني عن عمري وعلمي وقصتي، فذكرت له ذلك وقلت له استدع مَن عندك مِنَ النصارى واسألهم عني. فاستدعاهم وسألهم فأثنوا عليَّ عظيم الثناء وقالوا هذا عالم كبير في ديننا لا أحد أعلى منه درجة.

قال: ما تقولون إن أسلم؟

قالوا: نعيذه بالله من ذلك.

فاستدعاني بمحضرهم، فشهدتُ شهادة الإسلام، فصلَّبوا على وجوههم وقالوا: ما حمله إلا حب التزوج فإنَّ القسيس عندنا لا يتزوج، ثم انصرفوا مكروبين.

فاختصني السلطان بمجلسه، وأجرى لي مخصصاً يوميًّا ربع دينار، وزوجني ابنة الحاج محمد الصّفّار، ورزقتُ منها ولداً سميته محمداً تبركاً باسم نبينا ﷺ".

★ ★ ★

وبعدُ، فهذه القصة العجيبة ذكرها الميورقي في كتابه العظيم "تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب"، وفيها من الدروس والعبر والفوائد ما لا يخفى على المتأمل.

وقد ذكروا أنَّ ذلك الحَبْر الذي نصحه بالإسلام قد منَّ الله عليه بالإسلام لكنَّ النصارى تفطنوا له فقتلوه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[1].

[1] لمزيد: الأدلة الجليّة على صدق خير البريّة، عبدالمحسن المطيري.

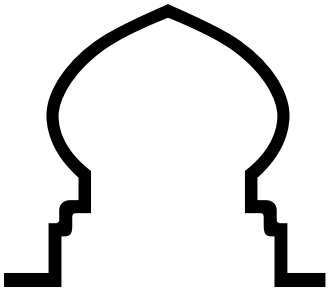

النافذة
الخامسة عشرة

الكبش النّطّاح

هل أتاك نبأُ البخاري؟

أبو عبدالله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي، المولود سنة ١٩٤هـ ببخارى.

توفي أبوه وهو صغير فنشأ في حجر أمه.

عَمِيَ في صغره فرأت أمه في المنام الخليل إبراهيم عليه السلام يبشرها أنَّ الله ردَّ على ابنها بصره لكثرة بكائها ودعائها، فلما أصبحت وجدته مبصراً.

★ ★ ★

دخل الكُتّاب وأُلهم حفظ الحديث وهو ابن عشر سنين.

وصحَّحَ لشيخه الداخليّ خطأً في الرواة وهو ابن إحدى عشرة سنة.

وحفظ كتب ابن المبارك ووكيع في سن السادسة عشرة.

ثم حج ومكث بمكة يطلب الحديث ست سنوات.

ثم كثرت رحلاته لطلب العلم، فزار بلخاً ومروَ ونَيسابورَ والريَّ وبغدادَ والبصرةَ والكوفةَ ومكةَ والمدينةَ ومصرَ والشّام.

★ ★ ★

أخذ العلم عن شيوخ كثيرين جدًّا. قال عن نفسه: "كتبتُ عن ألفٍ وثمانين شيخاً".

وأما تلاميذه فيكفي في تصور عددهم قولُ محمد بن يوسف الفِرَبْري راوي الصحيح عنه: "سمع كتاب الصحيح لمحمد بن إسماعيل تسعون ألف رجل".

★ ★ ★

كان البخاري أحفظ أهل زمانه، متقناً عالماً فقيهاً ورعاً زاهداً عابداً.

قال عن نفسه: "أحفظ مائة ألف حديث صحيح، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح".

وكان زملاؤه في الطلب يصححون دفاترهم من حفظه.

ولما قدم بغداد امتحنوه فحفّظوا عشرةً منهم مائة حديث قلّبوا أسانيدها، فكان كلما سمع حديثاً قال لا أعرفه، حتى ظنّ به الجمهور الظنون. فلما انتهوا قال: قم يا فلان! حديثك الأول رويته كذا وتصحيحه كذا، وحديثك الثاني رويته كذا وتصحيحه كذا، حتى أتم له العشرة. ثم قال للثاني قم، وفعل معه الشيء نفسه، حتى استكمل الأحاديث المائة.

عندها ذُهل البغداديون، حتى كان ابنُ صاعد إذا ذكره قال: الكبش النّطّاح!

★ ★ ★

قال ابن خزيمة: "ما رأيتُ تحت أديم السماء أعلمَ بحديث رسول الله ﷺ من محمد بن إسماعيل".

وقال الترمذي: "لم أرَ بالعراق ولا بخراسان في العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل".

وقال مسلمٌ للبخاري: "دعني أُقَبِّل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله، أشهد أنْ ليس في الدنيا مثلك".

وهكذا كل تلاميذه يقولون: ما رأينا مثله.

★ ★ ★

صنّف البخاري كتباً كثيرة، أشهرها: الصّحيح، والأدب المفرد، والتاريخ الكبير والأوسط والصغير، وخلق أفعال العباد، والجامع الكبير، والمسند الكبير، والتفسير الكبير، ورفع اليدين في الصلاة، والقراءة خلف الإمام، وبر الوالدين، والضعفاء، والأشربة، وكتاب الهبة، وأسماء الصحابة، وكتاب الوحدان، وكتاب المبسوط، والعلل، وكتاب الكنى، وكتاب الفوائد.

★ ★ ★

ومع علو كعبه في العلم والفضل والعبادة وتوفيق الله له في تأليف أصح كتب أهل الإسلام بعد كتاب الملك العلام؛ إلا أنه ابتلي بالحساد والوشاة والظلمة، يكيدون له المكائد ويُخرجونه من بلدٍ إلى بلد، حتى سمعه تلميذه

عبدالقدوس بن عبدالجبار السمرقندي يدعو ليلة في صلاة الليل: "اللهم قد ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت"، فما تمّ له شهر على ذلك حتى مات.

★ ★ ★

ويحكي قصة وفاته تلميذُهُ أبو منصور غالبُ بن جبريل، وقد نزل عليه البخاري ضيفاً في "خرتنك"، قال:

"أقام البخاريُّ عندنا أيّاماً فمرض واشتد به المرض، وجاء رسول الوالي يأمره بالخروج، فتهيّأ للخروج ولبس ثيابه خفيةً وتعمَّمَ، حتى إذا مشى قدر عشرين خطوة قال لي وأنا آخِذٌ بعضده ورجلٌ آخر معي يقود الدّابة: أرسلوني فقد ضعفت.

ثم دعا بدعوات، ثم اضطجع فسال منه العرقُ شيءٌ لا يوصف، ثم فاضت روحه رحمه الله تعالى.

وكان قد أوصى أن يكفن في ثلاثة أثواب بيضٍ ليس فيها قميص ولا عمامة، فأنفذنا وصيته".

★ ★ ★

كان ذلك ليلة السبت ليلة عيد الفطر عند صلاة العشاء سنة ٢٥٦هـ عن اثنتين وستين سنة. رحمه الله وطيّبَ مثواه، وجزاه عن أمة محمد ﷺ خير الجزاء وأوفاه.

★ ★ ★

كان البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِن النخبة الممتازة، والصفوة المختارة، الذين ندبوا أنفسهم لخدمة السُّنَّةِ المطهرة وجمْعِها من أفواه الرواة.

قطع لذلك المسافات الطِّوَال، وبذل ماله، وأفنى عمره.

واليوم تسأل عموم المسلمين عن شيءٍ من ترجمة هذا العلم الكبير فلا تجد عند كثيرٍ منهم إلا صمتاً مطبقاً، وجهلاً صارخاً. أمَّا إذا زدتَ في السؤال عمَّن قرأ كتابه الصحيح فقد لا تجد إلا النَّزْرَ اليسير، فإلى الله المشتكى.

★ ★ ★

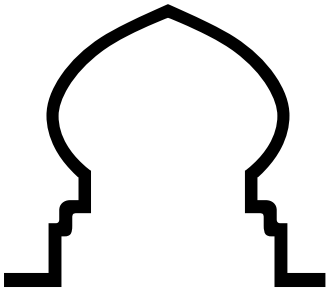

النافذة

السادسة عشرة

مِروحة السُّنَّة

صحيح البخاري المشهور بهذا الاختصار، واسمه الكامل كما وضعه مصنفه: "الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه".

حمله على تصنيفه **أمران**:

الأول: رؤيا مناميّة رأى فيها نفسه واقفاً بين يدي النبي ﷺ ومعه مروحة يذب بها عنه، فسأل عن تعبيرها، فقيل له تذب عنه الكذب.

والثاني: خاطرةٌ سمعها في مجلس شيخه إسحاق بن راهويه حين قال: "لو جمع أحدٌ كتاباً مختصراً لصحيح سُنَّةِ رسول الله ﷺ" فوقع ذلك في قلبه.

★ ★ ★

مكث في تأليفه **ست عشرة** سنة،

وانتخبه من **ستمائة ألف** حديث،

ولم يضع فيه حديثاً إلا بعد أن **يغتسل ويصلي ركعتين**.

وعدد أحاديثه دون المكرر ٢٦٠٢، وبالمكرر ٧٣٩٧، وإن أضيف لذلك التعاليق والمتابعات كان المجموع ٩٠٨٢.

★ ★ ★

اعتمد البخاري في صحيحه على ذاكرة المحدثين وحفظهم إذا كانوا ثقات متقنين، فإنْ شكَّ في ذاكرة شيخه لم يأخذ عنه إلا من كتابه، سواء أعطاه الشيخ كتابه أو نَسَخَهُ من نسخته ثم قابل النسخة وقرأها على شيخه لمزيد من التثبت والاحتياط.

ولأجل هذا جاء صحيح البخاري كتابَ فقهٍ وعقيدةٍ وتفسيرٍ وأدبٍ ومغازي.

وكان يُقطِّع الحديث الواحد ويورده في أكثر من موضع ليستنبط ما فيه من الفقه والأحكام.

ولا يكرر الحديث بكامله غالباً إلا إذا تعددت طرقه.

وقد التزم فيه الصِّحَّة.

وهو أول من اعتنى بالصحيح، فجاء كتابه أصح كتب الحديث على الإطلاق.

وكان يشترط في الراوي أن يعاصرَ شيخه، ويَثْبُتَ سماعه منه، ويكونَ إسناد الحديث متصلاً بلا انقطاع (عُرِفت هذه الاشتراطات عن طريق سبر منهج البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ).

★ ★ ★

ولم يحظ كتابٌ بعد كتاب الله بعناية العلماء مثل ما حظي كتاب البخاري هذا، ولذا بلغت شروحه أكثر من مائة وثلاثين (١٣٠) شرحاً، أشهرها:

- شرح **الخطّابي** (ت ٣٨٨هـ)، وهو أقدم الشروح، واسمه "أعلام الحديث"، مطبوع في ٤ مجلدات.
- شرح **ابن بطّال** (ت ٤٩٩هـ)، مطبوع.
- شرح **ابن التِّين** المالكي (ت ٦١١هـ).
- شرح **الحلبي** (ت ٧٣٥هـ)، لم يطبع.
- شرح **الكَرماني** (ت ٧٨٦هـ).
- فتح الباري **لابن رجب** (ت ٧٩٥هـ)، مطبوع لكنَّ المؤلف لم يكمله.
- شرح **ابن الملقن** (ت ٨٠٤هـ)، مطبوع.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري **لابن حجر** (ت ٨٥٢هـ)، وهو أعظم الشروح وأميزها على الإطلاق، ولا هجرة بعد الفتح كما قال الشوكاني. استغرق تأليفه خمسة وعشرين عاماً، ولما أكمله ابن حجر أولم وليمةً كبرى لم يتخلف عنها من وجهاء المسلمين إلا القليل. وقد لقي شرحه شهرة وقبولاً، وانتشر في الآفاق، واكتسحت شهرته سائر الشروح. يقع في ثلاثة عشر

مجلداً، مع مقدمةٍ في مجلدٍ ضخمٍ سمّاه: "هدي الساري لمقدمة صحيح البخاري".

- عمدة القاري **للعيني** (ت ٨٥٥هـ)، وهو شرح كبير تكلم فيه على الأنساب واللغات والإعراب والبلاغة واستنباط الفوائد وغيرها.
- إرشاد الساري للخطيب **القسطلاني** (ت ٩٢٣هـ)، جمع فيه بين فوائد عمدة القاري وفتح الباري لابن حجر، ونقل الفروق بين نسخ البخاري مما ذكره اليونيني. يقع في عشرة مجلدات، وطبع مراراً، وبعض الشيوخ يفضله على شرح ابن حجر لما فيه من الجمع والسهولة والتكرار والإفادة.

★ ★ ★

وبعدُ، فهذا أصح كتاب عندك أيها المسلم بعد كتاب ربك، فليكن لك حظٌّ من قراءته والاستفادة منه مستعيناً بشرحٍ له مما تقدم بيانه.

★ ★ ★

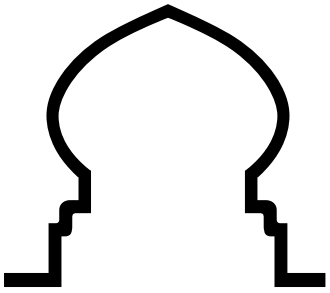

النافذة

السابعة عشرة

الديوان الثاني

ديوانُ السُّنَّةِ الثاني عند المسلمين هو صحيح مسلم.

مؤلفه الإمامُ الحافظُ الحجَّةُ الصادقُ أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري.

ولد سنة ٢٠٤هـ، ولما بلغ الرابعة عشرة ابتدأ طلب الحديث، وقبل سِنِّ الثلاثين طوّف البلاد الإسلامية طلباً للعلم في خراسان والعراق والشّام ومصر.

وشيوخه وتلاميذه لا يحصون كثرةً، غير أنَّ أهم شيوخه على الإطلاق الإمام البخاري الذي لولاه ما راح مسلمٌ ولا جاء كما يقول الدارقطني.

قال الخطيب البغدادي: "إنما قفا مسلمٌ طريقَ البخاري فنظر في علمه وحذا حذوه".

★ ★ ★

كان مسلمٌ إماماً في الحديث، اتفقوا على جلالته وإمامته، بل كان أشهرَ مِن أنْ تُذكرَ فضائله كما قال الخليلي.

كان ثقةً حافظاً ورعاً، وأصبح مقصد الطلاب من كل الأقطار والبلدان.

وله أكثر من عشرين مؤلَّفاً قيِّماً أجلّها الصحيح.

★ ★ ★

مات سنة ٢٦١هـ عن سبع وخمسين سنة. وقيل في سبب وفاته أنه ذُكر له حديثٌ لم يطَّلع عليه فدخل مكتبته وأمر ألا يَدخل عليه أحد، وانشغل بالبحث وعنده سلَّةُ تمر يأكل منها حتى فنيت ولم يشعر، فسبَّبَت له مرضاً مات به.

★ ★ ★

يأتي صحيح مسلم في **المرتبة الثانية** بعد صحيح البخاري، وقد جمعه من ثلاثمائة ألف حديث، وعرضه على علماء الفنّ فأجازوه.

وقد تميز بحسن ترتيبه وكمال تحقيقه ومعرفته بدقائق العلم وخفيّات الأسانيد ومراتب الرّواة.

وامتاز على صحيح البخاري بأنَّه كان يسوقُ الحديث بكامله في الباب الواحد، ويجمعُ طرقه فيه، ولا يكرره في أبوابٍ مختلفة إلا فيما ندر.

قال مسلمٌ متحدثاً بنعمة الله عليه: "لو أنَّ أهل الحديث كتبوا الحديث مائتي سنة فمدارهم على هذا المسند، يعني صحيحه".

★ ★ ★

تبلغ أحاديث صحيح مسلم أربعة آلاف من غير المكرر.

وقد حظي بعناية العلماء فكثرت شروحهم له، ومن هذه الشروح:

- المعلم بفوائد مسلم **للمازري** (ت ٥٣٦هـ).
- إكمال المعلم **للقاضي عياض** (ت ٥٤٤هـ).

❁ صيانة صحيح مسلم **لابن الصّلاح** (ت ٦٤٢هـ).

❁ المفهم شرح تلخيص صحيح مسلم **للقرطبي** (ت ٦٥٦هـ).

❁ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج **للنووي** (ت ٦٧٦هـ)، وهو من أجلِّ الشروح، وطُبع عدةَ طبعات أفضلها طبعة البابي الحلبي.

❁ الديباج على صحيح مسلم بن الحجّاج **للسيوطي** (ت ٩١١هـ).

❁ السراج الوهّاج **لصديق حسن خان** (ت ١٣٠٧هـ).

وكل هذه الشروح مطبوعة، وهناك شروح غيرها.

★ ★ ★

وخلاصة القول: إنَّ هذا الديوان من أعظم دواوين سُنَّة أحمد.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "**اتفق العلماء** رحمهم الله تعالى على أنَّ أصح الكتب بعد القرآن العزيز الصحيحان البخاري ومسلم، وتلقتهما الأمة بالقبول، وكتاب البخاري أصحهما وأكثرهما فوائد ومعارف ظاهرة وغامضة، وقد صح أنَّ مسلماً كان ممن يستفيد من البخاري ويعترف بأنه لا نظير له في علم الحديث".

وقال الحافظ العيني: "**اتفق علماء الشرق والغرب** على أنه ليس بعد كتاب الله أصح من صحيحي البخاري ومسلم، فرجَّحَ البعضُ ومنهم المغاربة صحيحَ مسلم على صحيح البخاري، والجمهورُ على ترجيح صحيح البخاري".

★ ★ ★

رحم الله مسلماً، وجزاه عن أمة محمد ﷺ خير الجزاء وأوفاه[1].

★ ★ ★

[1] لمزيد: الأصول الستة روايتها ونسخها، محمد إسحاق إبراهيم. ومنه كذلك معلومات موضوع الكبش النطاح، ومروحة السنة.

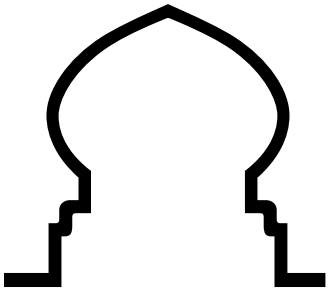

النافذة

الثامنة عشرة

رسالةٌ من ابن القيّم

إنَّ بركة الرجلِ **تعليمُه** للخير حيثُ حلّ، **ونصحه** كلَّ من اجتمع به.

قال الله تعالى مخبراً عن المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي معلماً للخير، داعياً إلى الله، مذكراً به، مرغباً في طاعته.

بهذا تكون بركة الرجل، وأما مَن خلا مِن ذلك فقد مُحقت بركة لقائه والاجتماع به، بل يصبح ذلك مما تضيع به الأوقات وتفسد به القلوب.

★ ★ ★

وكلُّ آفة تدخل على العبد فسببها **ضياع** الوقت **وفساد** القلب.

قال أحد الشيوخ: "احذروا مخالطة من تُضيع مخالطته الوقتَ وتُفسد القلب"، واستدل بآية: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

★ ★ ★

ومن تأمل حالَ الخلق وجد أكثرَهم في غفلةٍ واتباعٍ للشهوات وتفريطٍ فيما يعود عليهم بالنفع والصّلاح.

إنَّ الغفلة عن الله متى تزوجت باتباع الهوى تولّد منهما كل شر.

إنَّ العبد مضطر كل الاضطرار إلى أنْ يكون عارفاً بما ينفعه في معاشه ومعاده، وأنْ يكون مُؤْثراً مريداً لما ينفعه، مجتنباً ما يضره، وبذا يكون قد هدي إلى صراط مستقيم.

★ ★ ★

والعبد محتاج للهداية في كل وقت، بل في كل لحظة ونَفَس لأنه لا ينفك عن أحوال:

- إما جاهلاً بالاهتداء فيحتاج للتوفيق إليه.
- وإما مهتدياً في أمر لكنه خالفه عمداً فيحتاج للتوبة.
- وإما مهتدياً لبعض الأمر جاهلاً ببعضه فيحتاج لتمام الهداية.
- وإما مهتدياً بإجمال فيحتاج لمعرفة التفاصيل.
- وإما مهتدياً لأمر محتاجاً للهداية في أمور أخرى.

★ ★ ★

نسأل الله تعالى أن يزيننا بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، وأن يجعلنا للمتقين إماماً يقتدي بنا الآخرون.

★ ★ ★

ليكن لك على بالٍ أنَّ الإمامة في الدين لا تُنال إلا بالصبر واليقين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

الصبر بأنواعه الثلاثة، واليقين الجازم الذي لا ريب فيه ولا تردد ولا شك ولا شبهة بأركان الإيمان الستة.

★ ★ ★

اعلم أيها الموفق أنَّ اللذة التامّة الكاملة، والفرحَ والسرورَ وطيبَ العيش والنعيم؛ إنما هو في معرفة الله وتوحيده والأنس به والشوق إلى لقائه واجتماع القلب والهمِّ عليه.

ومهما تنقّل القلب في المحبوبات الدنيوية فلا راحةَ له ولا اطمئنانَ إلا بربه سبحانه الذي لا غنى له عنه طرفة عين.

★ ★ ★

احرص على أنْ يكون همك واحداً هو الله، فذاك —وربي– غاية السعادة ومنتهى النعيم، على حدِّ قول الأول: "مساكينُ أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها" قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: "معرفة الله ومحبته والأنس بقربه والشوق إلى لقائه".

★ ★ ★

قرة عين الحبيب ﷺ كانت في **صلاته**، وكان يقول: (أرحنا بالصلاة يا بلال).

الصلاة قرة عيون المحبين في الدنيا لما فيها من قرب من الله لا سيما حال السجود، وهي راحتهم.

ومن أراد الوصول لهذه المرتبة:

- **فليدخل** في الصلاة محبة لله وطلباً لمرضاته،
- **وليفرغ** قلبه لله فيها مناجاة وإقبالاً،
- **وليكن** فيها مقتدياً بصلاة الحبيب المصطفى حذو القذة بالقذة،
- **وليصل** كأنه يرى اللهَ تلقاء وجهه،
- **مستشعراً** مِنَّة الله عليه أنْ اصطفاه للوقوف أمامه،
- **غير غافل** عن تقصيره في حق الله مهما بلغ اجتهاده.

بهذه **المشاهدات الست** تصبح الصلاة قرة عين للعبد.

★ ★ ★

وبعدُ، فما سبق مقتطفات من رسالة لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أحد إخوانه.

وهي رسالة لطيفة في معناها، سهلة في أسلوبها، مترابطة المقاصد، غزيرة العلوم، تحث على تعليم الخير والنصح لكل مسلم.

فيها بيانٌ لحاجة العبد إلى الهداية من تسعة أوجه، وإيضاحٌ لأربع طرق يكون بها المرء إماماً في الدين.

وفيها تقريرُ أنَّ كُلَّ إنسانٍ يسعى للسعادة، وأنَّ هذه السعادة لا تتم إلا بأمورٍ ذكرها المؤلف وبيّن أحوال النّاس فيها.

الرسالة حريّة بتكرار قراءتها والتمعن في معانيها، وهي مطبوعة محققة بهذا العنوان: "**رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه**".

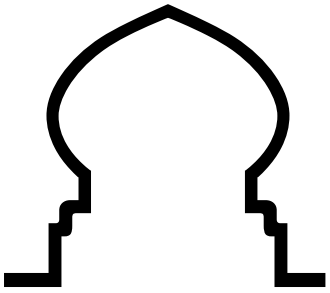

النافذة

التاسعة عشرة

الفاروق الثاني

مِنَ الأسبابِ التي جَعلت كثيراً من شبابنا يُكْبِرون فئاماً من غير المسلمين أنهم لم يدرسوا تاريخ عظمائنا بعناية ورويّة وإنصاف.

ومن هؤلاء النجوم الأعلام العِظام؛ عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى.

★ ★ ★

عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم الأموي.

جَدُّهُ مروان بن الحكم، أحد خلفاء الدولة الأموية، توفي سنة ٦٥هـ.

ووالده عبدالعزيز بن مروان، وَلِيَ مصرَ عشرين سنة، ومات سنة ٨٥هـ.

وأمه أمُّ عاصم، حفيدة الفاروق ﷺ.

★ ★ ★

ولد عمر بن عبدالعزيز سنة ٦١هـ بالمدينة، ونشأ مُرَفَّهاً مُنَعَّمَاً إذْ عمّهُ عبدالملك بن مروان خليفةُ المسلمين، ووالده الوالي على مصر.

★ ★ ★

حفظ القرآن، وروى الحديث عن عبدالله بن عمر وعبادة بن الصّامت وثلة من التابعين، منهم سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، وعنه أخذ العلم الغزير وتعلم العربية وبرع فيها.

★ ★ ★

أرادت والدته أنْ تُلحقه بوالده الوالي على مصر لكنَّ خاله عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ناشدها تَرْكَهُ لما رأى فيه من مخايل النجابة والبروز في العلم، فتركته.

وصدقت التوقعات فيه فنبغ في العلم حتى بلغ مرتبة الاجتهاد، وكان العلماء عنده تلامذة كما قال ميمون بن مهران.

★ ★ ★

وفي سنة ٨٧ ولاّه الوليد بن عبدالملك على المدينة، فدعا عشرةً من أفاضل العلماء وقال لهم: "دعوتكم لأمر تؤجرون فيه، وتكونون فيه أعواناً على الحق! إنْ رأيتم أحداً يتعدَّى أو بَلَغَكم عن عاملٍ لي ظُلامة فإني أُحَرِّجُ على أحدٍ منكم بلغه شيء من ذلك إلا أبلغني"، فدعوا له وافترقوا.

وهكذا نصح في ولايته، وسار فيهم سيرة عدلٍ مَرْضيّة.

★ ★ ★

وفي سنة ٩٩ عُهد إليه بالخلافة بعد وفاة سليمان بن عبدالملك وباختيار من بطانة الصلاح رجاء بن حيوة.

وعندما ولي الخلافة كان يأخذ البيعة على النّاس بأنْ يطيعوه ما أطاع الله، فإنْ عصى فلا بيعة له في أعناقهم.

ولما أراد الناس أنْ يقوموا له نهاهم وقال: "إنما يقوم الناس لرب العالمين"، وأذن للمظلومين أن يدخلوا عليه بلا استئذان.

ولما قُدِّمَت له مراكب الخلافة ردَّها وركب بغلته ومضى.

★ ★ ★

عندها جاءت جحافل الشعراء تبتغي العطايا وتتزلف بالمدائح كعادتها في هذه المناسبات، فحجبهم أشهراً لا يأذن لواحد منهم، ثم أذن لجرير، فلما قال شيئاً من شعره قال له: "لا أرى لك حقًّا في بيت مال المسلمين". وبعد توسل واستعطاف أعطاه عشرين ديناراً من ماله الخاص، فخرج جرير يجر أذيال الخيبة ويقول:

رأيتُ رُقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجنّ راقيا

★ ★ ★

كان لبعض الخلفاء قبله مظالمُ فأمر عُمَّاله بِرَدِّ المظالم من غير إبطاء أو انتظار للرجوع إليه في شأنها.

وكان بعضهم يُؤْثِرُ البيتَ الأمويَّ بالعطايا الكثيرة فألغى تلك الامتيازات وسوّاهم بعامّة النّاس سواء بسواء، فأرسلوا إليه من يراجعه فلم يجبه، فعاد إليهم الرسول قائلاً: "يا معشر بني أمية! عمدتم إلى صاحبكم فزوجتموه بنت ابن عمر فجاءتكم بعمر بن الخطّاب ملفوفاً في ثيابه فلا تلوموا إلا أنفسكم".

★ ★ ★

وكان بعضُ الولاة قبله قد اعتادوا أخذ الرُّشى فقطع عليهم هذه العادة المقيتة.

★ ★ ★

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يعرف للعلم قدره، ويعرف أنَّ نشره بين النّاس كفيل بكبح جماح الباطل؛ فأرسل عشرةً من فضلاء التابعين يعلمون البربر القرآن والفقه، واستمر ينتخب العلماء والفضلاء ويرسلهم معلمين مُفَقِّهِين، ويجري لهم الأرزاق ليتفرغوا للتعليم.

★ ★ ★

بسط ظلال العدل، وكان يتلقى الركبان يسألهم عن أمرائهم.

★ ★ ★

كان يُجِلُّ العلماءَ على الدَّوام، وحين كان والياً على المدينة أرسل رسوله يستفتي سعيد بن المسيب، فأخطأ الغلام وطلب من الشيخِ الحضورَ لمجلس الوالي، وكان سعيدٌ لا يأتي أميراً ولا خليفة لكنه استجاب تقديراً لعمر بن عبدالعزيز، فلما حضر اعتذر له عن خطأ رسوله وقال: "عزمتُ عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك عن حاجتنا".

★ ★ ★

كان في خلافته حريصاً على استضافة العلماء والصلحاء يعظونه حتى لا يدع للغفلة مجالاً.

وكان شديد الخشية من الله، إذا ذكر الله انتفض انتفاض العصفور، وإذا خطب سبقت عبراتُه كلماتِه.

وكان يشترط على جلسائه إعانته على الخير والعدل، وإبلاغه حاجات الناس، وألا يغتابوا عنده أحداً.

وكان مضرب المثل في الحرص على الوقت والإنجاز وعدم التأجيل، متحرياً للسنن عاملاً على إحيائها، كارهاً للبدع عاملاً على إماتتها، زاهداً في الدنيا وقد كان يحكم دولة مترامية الأطراف، ومع ذلك ترك لما مات سبعة عشر ديناراً فقط، ذهب سبعةٌ منها في تكاليف دفنه رَحِمَهُ اللَّهُ!

★ ★ ★

عوتب في مرض موته أنه لم يترك لأبنائه أرصدةً من المال فقال: "والله ما منعتهم حقًّا هو لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم، وهم أحد رجلين: إما تقيٌّ فسيجعل الله له مخرجاً، وإما عاصٍ فلا أكون معيناً له على المعصية".

★ ★ ★

وفي الزُّهدِ كان آية، طعامه العدس، وثيابه لا تساوي اثنا عشر درهماً، وقد كان من قبل الخلافة يلبس حُلّة بألف درهم لا يراها شيئاً.

★ ★ ★

وبعد سنتين وستة أشهر من العمل المضني لإرساء دعائم العدل توفي بأرض المعرّة سنة ١٠١هـ عن أربعين سنة، وصار أحدوثة الزّمان، رحمه الله رحمةً واسعةً وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء[١].

★ ★ ★

[١] لمزيد: موسوعة الأعمال الكاملة لمحمد الخضر حسين، المجلد الخامس.

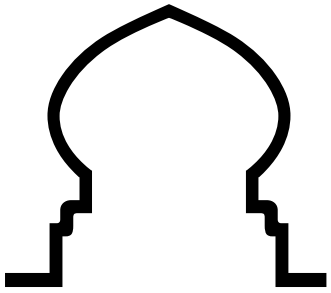

النافذة العشرون

هذه ليست نصيحة

الأصلُ احترامُ عِرض المسلم، وعدمُ جواز ذكره بما يكره إلا في مواضع قليلة استثنيت لتحقيق مصلحة عامّة أو خاصّة؛ كالكلام في الرواة صيانة لحديث المصطفى ﷺ.

★ ★ ★

حُكِيَ للإمام أحمد أنَّ **حاتم الأصم** قيل له: أنت رجل أعجمي وما ناظرك أحد إلا قطعته، فبأي شيء تغلب خصمك؟

فقال: بثلاث:

أفرح إذا أصاب خصمي،

وأحزن إذا أخطأ،

وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوؤه.

فقال افمام أحمد: "ما أعقله من رجل".

★ ★ ★

هكذا والله هُمُ العقلاء!

هَمُّهُم ظهورُ الحقِّ ونصحُ الخلقِ بأحسنِ عبارةٍ وأجملِ أسلوب.

وهكذا كان السلف يردُّ بعضهم على بعض نُصرةً للحق مع صيانة المقابِل من جرح شعوره أو إحراجه أمام الآخرين أو تنقصه أو إظهار جهله وقصورِ علمه، ممتثلين **قوله** ﷺ: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تَتَتّبعوا عوراتهم، فإنّه من يتّبع عوراتهم يتّبع الله عورته، ومن يتّبع اللهُ عورته يفضحه ولو في جوف بيته).

★ ★ ★

وما أجمل قول **عمر** رضي الله عنه: "لا تظن بكلمةٍ خرجت من أخيك المسلم سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملا".

وقيل لبعض السلف: أتحب أن يخبرك أحدٌ بعيوبك؟ قال: إنْ كان يريد توبيخي فلا.

★ ★ ★

وفي الحديث: (من عيّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله)، وهذا محمول على الذنب الذي تاب منه صاحبه.

ولما جيء إلى **النبي** ﷺ بِأَمَةٍ زَنَت أَمَرَ أنْ تُجلد ونَهى أنْ تُعيّر.

★ ★ ★

قال **الفضيل** رحمه الله: "المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعيّر".

ومقولة الفضيل هذه معيارٌ يفرق لك بين النصيحة والتعيير:

١/ النصيحة مطلوبة، والتعيير مذموم.

٢/ مَن أمر أخاه أو نهاه أو أنكر عليه على رؤوس الملأ فقد عيّره، وقد أنبأ إمَّا عن سوء نيّته وطويّته، وإمَّا عن جهله وجفائه.

٣/ النصح يقترن بالستر، والتعيير يقترن بالإعلان.

★ ★ ★

وقد كان السلف يكرهون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علانيةً، ويحبون أنْ يكون سرًّا بين الآمر والمأمور، لأنَّ هذا علامة النصح، ودليلٌ على أنَّ هدف الناصح إزالة المفسدة لا نشرَ عيوب الآخرين.

★ ★ ★

قال بعض العلماء لمن يأمر بالمعروف: "اجتهد أن تستر العصاة فإنَّ ظهور عوراتهم وَهَنٌ في الإسلام، وأحقُّ شيءٍ بالستر العورة".

★ ★ ★

شتَّان بين من قَصْدُهُ النصيحة، وبين من قَصْدُهُ الفضيحة، ولا تلتبس إحداهما بالأخرى إلا على مَن ليس مِن ذوي العقول الصحيحة.

★ ★ ★

احذر أيها الموفق مِن مشابهة خصال المنافقين الذين يحلفون ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

يحرجون الآخرين بالإنكار عليهم أمام النّاس، فإذا روجعوا قالوا ما أردنا إلا الحسنى. قائدهم الحسد، وحاديهم حُبّ الأذى، ومقصدهم إظهار الترفع

بالحطِّ من الآخرين، وصنيعهم مكرٌ سيء ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، وعلى الباغي يعود بغيه، وبالمتربص تدور الدوائر.

★ ★ ★

خلاصة القول: المسلمُ الصادقُ نقيُّ القلب تجاه إخوانه، يعلم أنَّ النصيحة لها أعظم مكان في الدين، ولها آدابها وطرقها الحكيمة السديدة التي توصل للمقصود بأفضل المسالك وأحسنها وأسناها[1].

ومما ينسب للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تعمَّدني بنصحك في انفرادي ... وجنِّبني النصيحةَ في الجماعة
فإنَّ النصحَ بين الناس نوعٌ ... من التوبيخِ لا أرضى استماعه
فإنْ خالفتني وعصيتَ أمري ... فلا تجزعْ إذا لم تُعط طاعة

★ ★ ★

[1] لمزيد: رسالة الفرق بين النصيحة والتعيير للحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى.

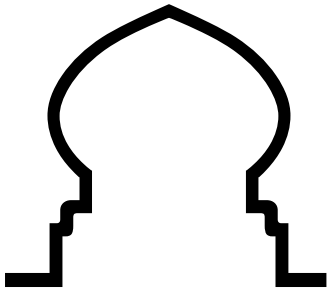

النافذة

الحادية والعشرون

صحبوا القرآن

يا ترى! كيف كان حال الصحابة مع كتاب الله ﷻ؟

★ ★ ★

جاء في سيرة **أبي بكر الصّدّيق** ﷺ أنّه كان سريع الدمعة حين يقرأ القرآن، ولذا تراجع عائشةُ ﷺ النبيَّ الكريم ﷺ وتقول: "يا رسول الله إنَّ أبا بكر رجلٌ أسيفٌ إذا قام مقامك لا يَسمع الناسُ قراءته من كثرة البكاء".

كان ﷺ نديَّ الصوت حَسَنَ التلاوة، ولذا لما خرج من مكة ثم عاد في جِوار ابن الدُّغُنَّة كان إذا قرأ القرآن ازدحم نساءُ المشركين وأبناؤهم يستمعون لعذب تلاوته.

★ ★ ★

وجاء في سيرة **الفاروق عمر** ﷺ أنّه كان وقّافاً عند كتاب الله، لا يتجاوز تعاليمه ولا يتعدى حدوده.

أساء إليه عيينة بن حصن فَهَمَّ بتأديبه لكنْ لما تلا عليه الحرُّ بن قيس آية: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ سَكَنَ غضبُه ووقف عند توجيهها.

وكان إذا جلس في ثلة فيهم أبو موسى الأشعري ﷺ قال: "يا عبدالله بن قيس ذكرنا ربَّنا"، فينطلق لسانه بالقرآن وقد أوتي مزماراً من مزامير آل داوود.

وفي صلاة الفجر كان لعمر ﷺ شأنٌ وأيّ شأن مع سورة يوسف على وجه الخصوص! يتلوها ويبكي وربما مرض من الحزن أيّاماً.

★ ★ ★

وأما **عثمان** ﷺ فهو صاحب المقولة النورانيّة: "لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام ربِّنا"، وصاحب المأثرة المشهورة إذ روي أنه قرأه في ركعة.

قال ابن عمر ﷺ في آية: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ قال: ذاك عثمان بن عفّان.

★ ★ ★

ومن رُوّاد الحوض المورود؛ **عبدالله بن مسعود** ﷺ.

قال عمر ﷺ: خرجت أنا وأبو بكر مع رسول الله ﷺ فإذا رجل قائم يصلي في المسجد، فاستمع النبي لقراءته وقال: (من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد).

أوقف ابن مسعود ﷺ حياته على القرآن تعلماً وتعليماً. كيف وقد أقسم –متحدثاً بنعمة الله– أنه ما نزلت آية من كتاب الله إلا وهو يعلم أين نزلت وفيم نزلت، وأنه لو علم أحداً أعلم منه بكتاب الله تناله المطايا لأتاه.

★ ★ ★

ومن أماثل النّاس؛ **عبدالله بن عبّاس** ﵄، إمام التفسير، وحبر الأمة، وترجمان القرآن.

دعا له المصطفى ﷺ بعلم الفقه والتأويل والحكمة فكان أعجوبة من أعاجيب الزمان.

يقول طاووس ﵀: "رأيت سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ إذا اختلفوا في شيء رجعوا إلى قول ابن عبّاس".

★ ★ ★

وأما **أُبَيّ بن كعب** ﵁ فقد كان من حفظة القرآن، حفظه غضًّا طريًّا من فم النبي الكريم.

وأمر الله نبيه ﷺ أن يقرأ عليه سورة البينة، وسمّاه باسمه فبكى فرحاً بذلك. قال النووي ﵀: "وتلك منقبة لأُبي لا يُعلم له مشارك فيها".

وسأله النبي ﷺ مرةً عن أعظم آية في القرآن فأجاب بأنها آية الكرسي، فضرب النبي ﷺ في صدره وقال: (ليهنك العلم أبا المنذر).

كان يختم كل ثمان.

أتاه رجل يستوصيه فقال: "اتخذ القرآن إماماً، وارض به قاضياً وحكماً، فإنَّه الذي استَخْلَفَ فيكم رسولُكم. شفيعٌ مطاع، وشاهدٌ لا يُتهم. فيه ذكركم، وذكر من قبلكم، وحكم ما بينكم، وخبركم وخبر ما بعدكم".

★ ★ ★

ونختم هذه النماذج بالصحابي الجليل **أبي موسى عبدالله بن قيس الأشعري** رضي الله عنه.

روى مسلمٌ قول النبي ﷺ في حقه: (لقد أُعطي مزماراً من مزامير آل داوود).

ومرَّ النبي ببيته ليلاً فوقف يستمع لقراءته العذبة، ومن الغد أخبره الخبر فقال أبو موسى: "لو علمت يا رسول الله لحبّرته لك تحبيرا". كأنَّ لسان حاله يقول: وفوق جمال هذه القراءة لديّ مزيد!

ولما أُرسل ومعاذٌ إلى اليمن اشتغل بتعليم أهلها القرآن.

ولما قدم دمشق كان الناس يتعمدون المرور ببيته ليلاً يتسمعون القرآن.

يقول أبو عثمان: "ما سمعت مزماراً ولا طنبوراً ولا صنجاً أحسن من صوت أبي موسى الأشعري، إنْ كان ليصلي بنا فنود أنه قرأ البقرة من حسن صوته".

ويقول العجلي: "لم يكن في الصحابة أحد أحسن صوتاً منه".

★ ★ ★

ألا فرضوان الله على أولئك الأصحاب!

وصلوات المولى وسلامُهُ على معلمهم؛ خيرِ الأنام.

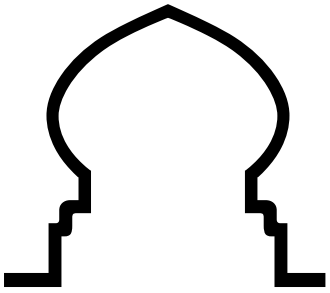

النافذة
الثانية والعشرون

تبعوا القرآن

هاك أخي أزهاراً من حديقة إقبال التابعين على كتاب رب العالمين.

★ ★ ★

علقمة!

علقمةُ بنُ قيسٍ النخعيُّ، فقيهُ الكوفة وعالمها ومقرئها وأنجب تلاميذ ابن مسعود، قال فيه: "ما أقرأُ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمةُ يقرؤه أو يعلمه".

كان علقمة يختم القرآن كلَّ خمس ليال.

★ ★ ★

مسروق!

مسروقُ بنُ الأجدعِ الهمدانيُّ، تلميذ الصحابة وخدين ابن مسعود.

أقبل على تفسير القرآن الكريم حتى أضحى إماماً فيه.

خرج إلى البصرة إلى رجل يسأله عن آية، فلما لم يجد عنده علماً بها وأُخبر عن رجل بالشّام مضى إليه من فوره.

من مأثور أقواله: "من سرَّهُ أنْ يعلم عِلْمَ الأولين والآخرين، وعلم الدنيا والآخرة فليقرأ سورة الواقعة".

★ ★ ★

الربيع!

الربيعُ بنُ خثيمٍ الكوفيُّ، الإمام القدوة الورع العابد.

قام ليلة بآية واحدة يكررها: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

من مأثور حكمه: "إذا تكلمتَ فاذكر سمع الله إليك، وإذا هممتَ فاذكر علمه بك، وإذا نظرتَ فاذكر نظره إليك، وإذا تفكرتَ فانظر اطلاعه عليك فإنه يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾".

★ ★ ★

عروة!

عروة بن الزبير بن العوّام، سليل الأمجاد؛ أبوه حواري رسول الله ﷺ، وأمه ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر.

كان له وِرد نهاري؛ يقرأ ربع القرآن نظراً من المصحف، وورد ليلي؛ يقوم بذلك الربع حفظاً.

لم يترك هذه العادة القرآنية إلا ليلةَ قُطعت رجله، ثم عاوده من اليوم التالي.

★ ★ ★

أبو العالية!

رُفيع بن مَهران الرَّياحي.

حفظ القرآن وأتقنه، وعرضه على عمر بن الخطّاب ﷺ ثلاث مرّات، وكفى بها منقبة.

كان يختم كلَّ ليلة فشقَّ عليه فاستفتى الصحابة فأرشدوه إلى الهدي النبوي فصار يختم كلَّ جمعة.

من مأثور قوله: "تعلموا القرآن، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه".

★ ★ ★

قتادة!

قتادة بن دعامة السدوسي البصري الضرير.

أحد أوعية العلم والحفظ.

اختبره سعيد بن المسيب في سورة البقرة، فقرأها كاملة لم يسقط منها حرفاً.

كان يختم كلَّ جمعة، وفي رمضان كلَّ ثلاث ليال.

★ ★ ★

صفوان!

صفوانُ بنُ مُحرِز المازنيُّ التميميُّ.

كان مكبًّا على القرآن، فإذا صلى صلاةً مكث بعدها وقتاً طويلاً في المسجد يقرأ القرآن، وله في الليل قيامٌ طويلٌ وقراءةٌ طويلةٌ جدًّا.

كان آيةً في صدق الوعظ فيقول أصحابه عظنا، فلا يزيد على كلمة (الحمد لله) يرفع بها صوته ويكررها فترق قلوبهم ويبكون.

★ ★ ★

مجاهد!

مجاهدُ بنُ جبرٍ المكيُّ مولاهم.

مات بمكة وهو ساجد سنة أربعٍ ومائة.

عرضَ القرآن على ابن عبّاس ثلاثَ مرَّات يُوقفه عند كل آية ويسأله عنها. استفرغ عمره كله في التفسير.

سأله أحدهم مرة: أنت الذي تفسر القرآن برأيك؟ فبكى بكاءً مريراً ثم قال: "إني إذاً لجريء! لقد حملتُ التفسير عن بضعةَ عشرَ رجلاً من أصحاب النبي ﷺ".

قال الأعمش: "كان مجاهد كأنه حمّال، فإذا نطق خرج من فيه اللؤلؤ".

★ ★ ★

خيثمة!

خيثمةُ بنُ عبدالرحمن المذحجي الكوفي.

تلميذُ الصّحابة، أبوه وجدُّه صحابيان.

كان مكبًّا على القرآن الكريم لكنْ لم يكنْ أحدٌ يعلم مقدارَ قراءته حتى جاء مرض موته فبكت زوجته وقالت: الرجال بعدك عليّ حرام! فقال: "ما أخشى إلا أخي محمد بن عبدالرحمن فإنه فاسق يتناول الشراب، فأخشى أن يشربه في بيتي بعد إذ كان القرآن يتلى فيه في كل ثلاث".

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ لا يوقر إلا أهل القرآن، فإذا زاروه صنع لهم خبيصاً ويقول: "كلوا فوالله ما أشتهيه ولكنْ صنعته لكم"، فإن رأى على أحدهم قميصاً بالياً قابله على انفراد ودسَّ في جيبه بعض الدراهم.

★ ★ ★

وما أجمل أن يكون الختام بهذا الحديث المبين فضلَ أهل القرآن!

قال النبي الكريم المصطفى ﷺ: (إنَّ من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط). رواه أبو داوود بإسناد حسن من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

★ ★ ★

[1] لمزيد: حال السلف مع القرآن، بدر البدر، دار الحضارة.

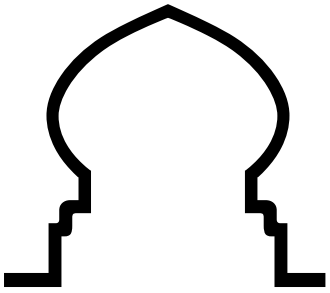

النافذة
الثالثة والعشرون

جيلٌ لن يتكرر

روى أبو هريرة ﷺ قال:

خرج رسولُ الله ﷺ في ساعةٍ لا يخرج فيها، ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر فقال: (ما جاء بك يا أبا بكر؟) قال: "خرجت ألقى رسول الله وأنظر في وجهه والتسليمُ عليه".

فلم يلبث أن جاء عمر فقال: (ما جاء بك يا عمر؟) قال: "الجوع يا رسول الله". قال ﷺ: (وأنا قد وجدت بعض ذلك).

فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بنِ التَّيِّهان الأنصاري، وكان رجلاً كثير النَّخل والشّاء، ولم يكن له خدم، فلم يجدوه فقالوا لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: انطلقَ يستعذبُ لنا الماء.

فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربةٍ يَزْعَبُها –أي يجد مشقةً في حملها لثقلها– فوضعها ثم جاء يلتزم –أي يعانق– النبي ﷺ ويفديه بأبيه وأمه.

ثم انطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطاً، ثم انطلق إلى نخلة فجاء بقنوٍ –والقنو عنقود البلح– فوضعه. فقال النبي ﷺ: (أفلا انتقيتَ لنا من رُطَبِه؟) فقال: يا رسول الله إني أردت أن تختاروا أو تخيروا من رُطَبه وبُسْره.

فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال النبي ﷺ: (هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة؛ ظلٌّ بارد ورُطبٌ طيّب وماءٌ بارد).

فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً، فقال النبي ﷺ: (لا تذبحنَّ لنا ذاتَ درّ).

فذبح لهم عَناقاً أو جدياً، فأتاهم بها فأكلوا.

فقال ﷺ: (هل لك خادم؟) قال: لا، قال: (فإذا أتانا سبيٌ فأتنا).

فأُتي ﷺ برجلين ليس معهما ثالث، فأتاه أبو الهيثم، فقال النبي ﷺ: (اختر منهما)، فقال: يا رسول الله اختر لي، فقال النبي ﷺ: (إن المستشار مؤتمن، خذ هذا فإني رأيته يصلي واستوص به معروفاً).

فانطلق أبو الهيثم إلى امرأته فأخبرها بقول رسول الله ﷺ، فقالت امرأته: ما أنتَ ببالغٍ حقَّ ما قال فيه النبي ﷺ إلا بأن تُعتقه. قال: فهو عتيق.

فقال النبي ﷺ: (إنَّ الله لم يبعث نبيًّا ولا خليفةً إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، ومن يوق بطانة السوء فقد وقي).

رواه أبو داوود وابن ماجه والنسائي وصححه الألباني. وروى جزأه الأول إلى قوله (تسألون عنه يوم القيامة) مسلم في الصحيح. وروى جزأه الأخير من قوله (إنَّ الله لم يبعث نبيًّا) البخاري في الصحيح.

★ ★ ★

وبعدُ، فهذا الحديث يبعث على العجب:

۞ رسولُ الله ﷺ يعاني ألم الجوع وهو سيد الأولين والآخرين؛ لنعلم أنَّ الدنيا ليست بشيء.

۞ وصاحباه رضي الله عنهما يذوقان ألم الجوع وهما أكرم هذه الأمة وأفضلها بعد نبيّها.

۞ وأبو الهيثم رضي الله عنه يختصه الله بأنْ يكون أضيافَه خيرُ البشرية وصاحباه، فيطير فرحاً ويبذلُ في الإكرام أقصى ما يستطيع. ألم تلحظ في الحديث تكرر مفردة (**انطلق**) كلما جاء الكلام عنه رضي الله عنه؟! حتى تعلم كيف كان يتيه فرحاً بهذه الكرامة.

۞ ثم هذا القدر اليسير من النِّعم يقال فيه هذا فكيف بما نحن فيه؟!

۞ وانظر كرم المصطفى ﷺ حين قابل إحسان أبي الهيثم رضي الله عنه بإحسانٍ أسنى منه.

۞ ثم إشارته ﷺ بالذي يصلي.

۞ وعجبٌ واللهِ موقف زوجة أبي الهيثم رضي الله عنها حين فهمت وصية النبي ﷺ بهذا الخادم أحسنَ فهمٍ فأشارت على زوجها أنْ يعتقه فكانت بطانة خير ورشد وصلاح.

★ ★ ★

وفي الحديث من الفوائد أعاجيبُ وأعاجيب..

ولله درُّ ذلك الجيل الذي لن يتكرر..

وتلك القلوب الطاهرة، والعقول الزاكية، التي لم ولن يعرف العالم لها مثيلاً.

★ ★ ★

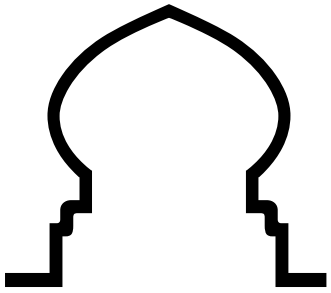

النافذة

الرابعة والعشرون

ذئبان مفترسان

خرَّج الإمام أحمد، والنسائي، والترمذي وقال حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه من حديث كعب بن مالك الأنصاري ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: (ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه).

★ ★ ★

في هذا الحديث مَثَلٌ عظيم جدًّا ضربه النبي ﷺ لفساد دين المرء بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأنَّ ذلك ليس بدون فسادِ الغنم بذئبين جائعين ضاريين أتياها وقد غاب عنها الرّعاة ليلاً فأخذا فيها أكلاً وافتراساً.

ومعلومٌ أنه لا ينجو من الغنم في هذه الحالة إلا القليل، وكذا لا يسلم من دين المرء مع هذا الحرص إلا القليل.

★ ★ ★

والحرص على المال هنا يقصد به **أمران**:

أولهما: شدة محبته مع المبالغة في تطلبه من كل الوجوه صرفاً لغالب العمر فيه.

وثانيهما: أن يزيد على النوع الأول فيتطلب المال من وجوه محرمة ثم يمنع حقوقاً واجبة.

فأما **الأول** ففيه تضييعُ العمرِ الشريفِ في رزقٍ لا يسوقه حرصُ حريصٍ ولا يرده كراهية كاره، وقد أمرنا بالسعي المعتدل لتحصيله، أما درجة الحرص الفاجع فعلامتها بخلُ المرء وتقتيره وازديادُ طمعه بازدياد أمواله. وقديماً قال أبو العتاهية: أذل الحرصُ أعناق الرجال.

★ ★ ★

وأما النوع **الثاني** فهو الشح الذي من وقيه أفلح، ومن بُلي به هلك.

والشحُّ حرصٌ شديدٌ يحمل صاحبه على أخذِ المال من غير حِلّه ومنعِ الحقوق فيه.

وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ الشحَّ يأمر بالقطيعة والفجور والبخل، وأنه لا يجتمع الشحُّ والإيمانُ في قلب مؤمن، وأنَّ أفضل الإيمان الصبرُ والسماحة.

ومتى وصل الحرص على المال هذه الدرجة نقصَ بذلك الدين والإيمان نقصاً بيّناً حتى لا يبقى منه إلا أقل القليل.

★ ★ ★

والأمر **الثاني** في الحديث حرصُ المرء على الشّرف، وهو أشد إهلاكاً من الحرص على المال، فمَن طَلَب شرفَ الدنيا والرفعةَ فيها والرياسةَ على الناس والعلوَّ في الأرض كانت استقامته على الحق من المستحيلات.

★ ★ ★

والحرص على الشرف **قسمان**:

الأول: طلبُ ذلك عن طريق الولاية والسلطان والمال. وهو أمر خطير جدًّا يمنعُ خيرَ الآخرة وشرفها وكرامتها وعزها ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وما حَرِصَ أحدٌ على ولاية فعدل فيها أو ناله التوفيق.

تأمَّلْ وصية الحبيب المشفق الناصح ﷺ لعبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه حين قال له: (يا عبدالرحمن! لا تسأل الإمارة فإنك إنْ أُعطيتها عن مسألة وُكلتَ إليها، وإنْ أُعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها).

وعند البخاري قوله ﷺ: (إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضعة وبئست الفاطمة).

وكان النبي ﷺ لا يولي من سأل الولاية وحرص عليها.

★ ★ ★

وإذا أردت علامة العالِم المفتون بها فإنك واجدُهُ محبًّا لمجالسة الكبراء والأثرياء، محبًّا لمشاركتهم في المنظر البهيّ والمركب الهنيّ والخادم السريّ واللباس اللين والفراش الناعم والطعام الشهيّ، ذليلاً تابعاً يخدمهم بنفسه ويسكت عن إنكار المنكر، بل يزين لهم فِعالهم بقبيح تأويلاته، فاللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع.

★ ★ ★

وإنَّ مَن وليَ ولاية فنفذ أمر الله، وأمر العباد بطاعة الله، ونهاهم عن المحارم ونصح لهم، ولم يبحث عن مدحهم وثنائهم، بل استعان بالله ورجا وجهه الكريم؛ فهذا ليس من الصنف المذموم في شيء، بل هو الممدوح الممدح.

★ ★ ★

والقسم الثاني من طلب الشرف: مَن طلبه بالأمور الدينية كالعلم والعبادة والزهد.

وهذا أفحش من الأول وأقبح وأخطر لأنَّ هذه أمور يُطلب بها ما عند الله من الدرجات العلى والنعيم المقيم، وإنما فُضِّل العلم لأنه يُتقى به وجه الله وإلا كان صاحبه ممن لا يجد عرف الجنّة يوم القيامة بل يكون أوَّلَ حطب جهنم وأشدَّ أهلها عذاباً.

في الحديث قوله ﷺ: (من طلب العلم ليماريَ به السفهاء أو يجاريَ به العلماء أو يصرفَ وجوه النّاس إليه أدخله الله النّار).

★ ★ ★

وإن أردت علامة أصحاب الصنف الأخير فانظر للمتصدرين للفتيا التي كان السلف يتدافعونها فصار الخلف يتجاذبونها، وكما قال ابن مسعود رضي الله عنه: "والذي يفتي النّاس في كل ما يستفتونه فهو مجنون".

ومن علامة هؤلاء كذلك حبهم الشهرة بين النّاس حتى يقال فلان عالم أو عابد أو زاهد أو حافظ أو صاحب كرامات.

★ ★ ★

خلاصة القول: كلُّ نفس مفطورة على حبِّ الرفعة والعلو، والعاقل من خطمها بخطام التقوى فطلبَ العلو عند الله وسعى في التنافس لنيل لدرجات الآخرة ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

ألا إنما التقوى هي العزُّ والكرمْ وحُبُّكَ للدنيا هو الذلُّ والسقمْ
وليس على عبدٍ تقيٍّ نقيصةٌ إذا حققَّ التقوى وإنْ حاكَ أو حَجَم[1]

★ ★ ★

[1] لمزيد: رسالة الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في شرح حديث الباب.

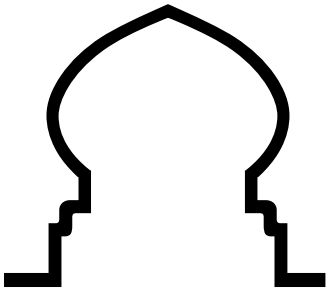

النافذة

الخامسة والعشرون

أصل الاصول

علمُ التوحيد من أجلِّ العلوم التي تنصرف إليها همةُ الطالب النجيب.

وهو علمٌ بالأحكام الشرعيّة العقديّة من أدلتها اليقينيّة.

وسواء سُمِّيَ علم التوحيد أو علم العقيدة أو الإيمان أو السُّنَّة أو أصول الدين أو الشريعة أو الفقه الأكبر؛ فالكل مسميات لمسمى واحد، موضوعه فهم حقيقة الإيمان بالله، وما يجب له من صفات الجلال والكمال، مع إفراده وحده بالعبادة دون شريك، واعتقاد أركان الإيمان الستة مع البعد عمَّا يُضادها من الكفر والشرك والنفاق.

★ ★ ★

التوحيد هو **أول الواجبات**، ففي وصية النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله).

ولله در العلامة حافظ الحكمي رحمه الله إذ يقول:

أوَّلُ واجبٍ على العبيدِ معرفةُ الرحمنِ بالتوحيدِ

وهو حقُّ اللهِ على العباد كما في حديث معاذ المشهور. وعليه؛ فتعلم فرضِ العينِ منه واجبٌ على كلِّ مكلف.

وفرضُ العين منه هو ما تصح به عقيدة المسلم في ربه، ومعرفة ما يجوز ويجب ويمتنع في حق الله تعالى ذاتاً وأسماءً وأفعالاً وصفات على وجه الإجمال. وما زاد على ذلك من التفصيل والتدليل والتعليل ورد الشبهات وإفحام المخالفين فهو فرضُ كفايةٍ يقوم به طلبة العلم والمشايخ.

★ ★ ★

هذا وإنَّ **شرف العلم بشرف المعلوم**. والمعلوم في علم التوحيد هو الحي القيوم. ولذا كان السلف يسمونه الفقه الأكبر. كيف لا؟! وكلُّ الرسل إنما دعوا إليه، وكلُّ الكتب إنما أنزلت لتقريره، وعلى الحبيب ﷺ يوم الجمعة يوم عرفة نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

وليس مكلفٌ إلا وهو محتاجٌ لهذا العلم ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وحاجة العبد إليه فوق كل حاجة، وضرورته إليه فوق كل ضرورة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾، ولا راحة له ولا طمأنينة ولا سعادة إلا بأنْ يعرف ربّه بأسمائه وصفاته وأفعاله.

★ ★ ★

التوحيدُ **نعمةٌ من أجلِّ النعم**، وبدونه يعيش المرء في حيرة واضطراب، يعتقدُ اليوم شيئاً وينقضه غداً، ويطمئنُ الساعةَ لأمرٍ يشكُّ فيه الساعة التي تليها.

قال بعض السلف: ما طابت الدنيا إلا بتوحيده، وما طابت الآخرة إلا بجنته والنظر إليه.

تغافل عنه **إيليا أبو ماضي** فغرق في بحر الظلمات:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيتُ ولقد أبصرتُ قُدّامي طريقاً فمشيتُ

وجهله **عمر بن الخيّام** فقال بائساً مبتئساً:

لبستُ ثوبَ العمر لم أُستشر وحِرتُ فيهِ بينَ شتَّى الفِكَرْ
وسوف أنضوا الثوبَ عني ولم أدرِ لماذا جئتُ أينَ المفرّْ؟

فيا رب لك الحمد على نعمة التوحيد ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

★ ★ ★

التوحيد يعلمك:

- أنَّ الرزق من تدبير الله فترضى.
- وأنَّ طبيعة الدنيا الكدر فمهما نزل بك من سوء فلا تجزع.
- وأنَّ رضى الله غاية ما تسعى له وتسعد به.
- وأنَّ لذائذ الدنيا زائلة فتبلّغ منها بقدر الحاجة.

★ ★ ★

وخلاصة القول: علمُ التوحيد متى ما فقهه العبد وعمل بمقتضاه صار لله وليًّا، محبوباً له، ينصره ويدافع عنه، ويهبه نور البصيرة والعزة والكرامة والشرف واليقين وانشراح الصدر وطمأنينة القلب وبرد اليقين والسَّير على الجادَّة بلا انحراف، مخلصاً طائعاً.

وفي الآخرة يكون ممن قال الله فيهم: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾.

★ ★ ★

لكنّ هاهنا سؤال مُلِحٌّ: ما **المصادر** التي يتعلم منها المرء هذا العلم على الوجه الصحيح النقيِّ المأمون.

وجوابه في الصفحات التالية.

★ ★ ★

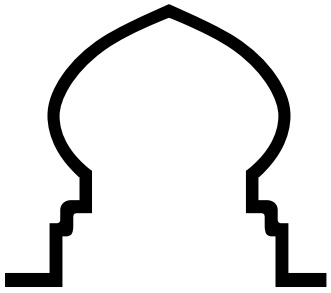

النافذة

السادسة والعشرون

مصادر عقديّة

بذلَ أهلُ العلمِ من السلف والخلف جهوداً كبيرةً في التصنيف في العقيدة تحت اسم التوحيد والسُّنَّة والشريعة وأصول الدين والاعتقاد، ولهم في ذلك منظومات معروفة.

★ ★ ★

ومن هذا التراث السلفيّ الزاخر **كتابُ السُّنَّة للإمام أحمد** رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو أحد الأصول الأولى للعقيدة الصحيحة في القرون الفاضلة. وهو كتاب موثوقٌ لجلالة مؤلفه وسعة علمه روايةً ودراية. يتميز بسهولة الأسلوب وحسن العبارة والشمول مع الاختصار. طبع في رسالة علمية للباحث عبدالإله الأحمدي.

★ ★ ★

وللإمام **كتابٌ في الرد على الزنادقة والجهميَّة** فنّد فيه شبههم في الاستدلال الخاطئ بالآيات القرآنية لتوافق أهواءَهم ومبتدعاتهم. وقد طبع في رسالةٍ علميَّةٍ للباحث محمد بن سعيد القحطاني.

★ ★ ★

وللبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ كتابٌ سمّاه: **"كتاب خلق أفعال العباد"** يُعَدُّ مرجعاً في بابه.

★ ★ ★

والكتاب الرابع: **كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ**. مؤلفه الإمام ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٣١١هـ). وهو من أهم كتب أهل السنة والجماعة، ويحوي ٧٥٠ حديثاً. أفضل طبعاته التي حققها الباحث عبدالعزيز شهوان.

★ ★ ★

ثم كتابُ **الإبانة عن أصول الديانة** لأبي الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٣٢٤هـ). ألَّفه بعد توبته من مذهبيْ الاعتزال والكُلَّابية ورجوعه إلى مذهب السلف الصالح، وكتب فيه ردوداً على الفرق التي ضلّت في أبواب المعتقد.

★ ★ ★

والكتاب السادس: **كتاب السُّنَّة للإمام البربهاري** رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٣٢٨هـ)، وهو مرجع لطيف مختصر، وقد حققه الباحث خالد الرَّدَّادي.

★ ★ ★

ثم يأتي كتابٌ موسوعيٌّ لم يأت أحد بعده إلا استفاد منه، وهو كتابُ **شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة** للإمام اللالكائي (ت ٤١٨هـ)، وهو موسوعةٌ تحوي أسماءَ علماءِ أهل السُّنَّة والجماعة؛ الأمر الذي يؤكد إجماع علماء الأمة المعتبرين على عقيدة أهل السُّنَّة. وقد طبع بتحقيق متين في خمسة مجلدات للباحث أحمد بن سعد حمدان.

★ ★ ★

والكتاب الثامن: كتابُ **عقيدة السلف أصحاب الحديث** للإمام أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٤٤٩هـ)، وهو مصدر أصيل مختصر، وله طبعة ممتازة بتحقيق الباحث ناصر الجديع.

★ ★ ★

ثم يأتي كتابُ **لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد** للإمام موفق الدين ابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠هـ)، وهو كتاب مختصر اهتم به علماؤنا وشرحوه.

★ ★ ★

أمَّا شيخ الإسلام ابن تيمية الحرَّاني رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٧٢٨هـ) فله **التدمرية**، وهو مرجع في توحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، سهّل فهمَهُ الشيخُ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه المحرر القيم "تقريب التدمرية".

وله "**العقيدة الواسطية**"، وهو كتابٌ سيّار كثرت شروحه.

وله كذلك "**الفتوى الحموية الكبرى**"، سؤالٌ ورد إلى الشيخ من حماة في أصول توحيد الأسماء والصفات، حرره الشيخ غاية التحرير، وأُوذي بسببه، أَجزل الله مثوبته.

★ ★ ★

ولتلميذه ابن القيم كتابٌ قيم أسماه **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**.

★ ★ ★

ثم يأتي الكتاب الذي حاز غاية القبول، وهو **شرح العقيدة الطحاوية** لابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٧٩٢هـ)، شرح فيه عقيدة الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٣٢١هـ)، وأفضل طبعاته التي حققها الشيخان عبدالله التركي وشعيب الأرناؤوط.

★ ★ ★

والكتاب الخامس عشر هو **كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد** للشيخ الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ١٢٠٦هـ)، وهو أهم كتب الشيخ، وليس أحد من مشايخنا الكبار إلا وله شرح عليه.

★ ★ ★

وختاماً فمن أراد الشمول والسهولة في هذا الباب فعليه بكتاب **معارج القبول** للشيخ العلامة حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ١٣٧٧هـ)، وهو شرحٌ لنظمٍ له أسماه "سُلَّم الوصول".

★ ★ ★

وبعدُ فهذه **مصادر نقيّة** تَسْلُك بك جادَّة التعلم والتفقه في هذا الفن، والله ولي التوفيق[1].

★ ★ ★

[1] لمزيد: علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة المبادئ والمقدمات، محمد يسري.

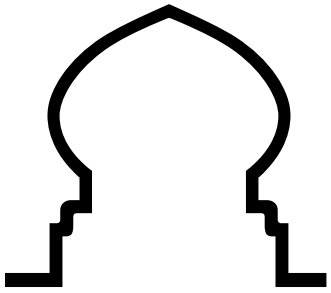

النافذة
السابعة والعشرون

فاتح الاندلس

كثيرٌ من القادة العِظام الذين كانت لهم أيادٍ بيضاء في إنشاء دول إسلامية رفعت لواء الإسلام ومدّت ظلال العدل وبسطت أنوار العلم والمدنية الباهرة؛ هم اليوم مجاهيلٌ نكراتٌ في المخزون المعرفي لدى كثير من المسلمين.

★ ★ ★

واحدٌ من هؤلاء هو **موسى بن نصير** فاتح الأندلس.

★ ★ ★

ولد سنة ١٩هـ في خلافة عمر ﷺ، وأخذ عن بعض الصحابة، وترعرع في وادي القرى بالحجاز، وكان مولى لعبدالعزيز بن مروان، ثم انتقل إلى دمشق وخدم بني مروان وكان له شأن فقلّدوه أعمالاً في ممالكهم.

★ ★ ★

وفي سنة ٨٨هـ عَهد إليه الوليد بن عبدالملك بولاية بلاد المغرب، فنزل القيروان وغزا البربر حتى بلغ طنجة، ودان له سائر البربر فولَّى عليها طارق بن زياد، ثم عاد إلى القيروان.

★ ★ ★

ولما استتبَّ له الأمر بالمغرب استأذن الخليفة في غزو الأندلس فأذن له، وبعث إلى طارق بن زياد أن يغزوها، فعبر طارقٌ البحر ونزل بالجبل الذي سمي

بعد ذلك "جبل طارق"، ثم دخل الأندلس بجيش قوامه اثنا عشر ألف مجاهد، ففتح جانباً عظيماً منها، ثم قدم موسى بن نصير بجيشٍ ضخمٍ سنة ٩٣هـ فتعاون الجيشان وكان النصرُ حليفَهما في كل وقعة.

★ ★ ★

ولما نجح موسى بن نصير هذا النجاح الباهر سمت به همته إلى التوغل في أوروبا من جهة الغرب نحو الشرق حتى يبلغ القسطنطينية.

فلما بلغ الخليفةَ خبرُ ذلك رأى فيه خطراً على الجيش الإسلامي فاستدعى القائدان الكبيران موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى دار الخلافة بدمشق.

وبعد أن وصلا بأيامٍ مات الوليدُ وخَلَفه سليمان بن عبدالملك ولم يكن راضياً عن موسى فعزله.

★ ★ ★

كان موسى بن نصير رجلاً حازماً يقظاً داهية، ثبّت دعائم الإسلام في بلاد المغرب، وكان همه من الفتوح نشر الدعوة الإسلامية فكان كلما فتح بلداً عيّن فيها من العلماء والفقهاء المتميزين من يتولون تعليم البربر الإسلام والصلاة وشعائر الدين.

★ ★ ★

وكان ثاقب الفكر، داهية في السياسة وأمور الحرب، ويكفي في ذلك أنه فتح البلاد من غرب مصر حتى وصل المحيط ولم يُهزم له جيش قط، بل أخضع قبائل عتيدة كالبربر المعروفين بالشجاعة والإقدام.

★ ★ ★

كان فصيحاً بليغاً له نظم ونثر رفيع.

كما كان عامرَ القلب بإجلال الله.

وقع قحط شديد بالمغرب فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء للاستسقاء، وخطبهم فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين؟ فقال: هذا مقامٌ لا يُذكر فيه غير الله!

★ ★ ★

حفظ التاريخ لهذا القائد همته الشامخة، وأعماله الفاخرة، ومجده الأثيل، كما حفظ له خطبته الرائعة لما دخل المغرب فاتحاً سنة ٨٥هـ، ومما قال فيها:

"إنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة فليحمد الله، ومن رأى مني سيئةً فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون. ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله"

★ ★ ★

كانت الفترة الأخيرة من حياة هذا القائد سيئة إذ قوبل بجفاءٍ من سليمان بن عبدالملك نظراً للوشاية الحاسدة التي وصلته، فأهمل شانه، وقيل تمادى في إهانته، ثم ندم واصطحبه في رحلةِ الحج التي مرض فيها موسى بن نصير، وكانت نِعْمَ الخاتمة لهذا العمر المديد في ساحات الجهاد والفتوح والدعوة ونشر الإسلام.

★ ★ ★

كان ذلك سنة ٩٧ للهجرة، وقد قارب الثمانين من عمره، وأرسى دعائم دولة الإسلام في الأندلس التي استمرت بعد ذلك ثمانية قرون، فعليه رحمة الله في الفاتحين، وسلامٌ عليه في الخالدين، والحمد لله رب العالمين.

★ ★ ★

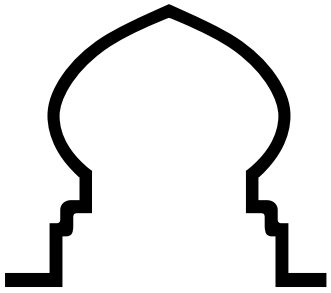

النافذة

الثامنة والعشرون

سُنَنٌ مهجورة

موتُ السنن واندثارها، وجهلُ الناس بها، وتركُهم العمل بها؛ علامةٌ على ظهور البدع وفشوها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ما يأتي على الناس من عام إلا أحدثوا فيه بدعة وأماتوا سُنَّةً حتى تحيا البدع وتموت السنن".

★ ★ ★

وإنَّ من الدعوة إلى الله تعالى إحياء السنن وإشاعتها بين المسلمين، والدلالة عليها، وحث النّاس على تطبيقها، فإنَّ من اعتاد الوقوف عند حد المسنون ترقّى للمحافظة على الواجبات وعدم التفريط بها، فهي كالسُّور الحامي لها.

يقول سفيان الثوري رحمه الله: "ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديثٌ قط إلا عملت به ولو مرّة".

★ ★ ★

ومن هذه السنن التي قلّ بها العمل:

- **البدء بالوضوء قبل الاغتسال الواجب**. فإذا أجنب الإنسان ووجب عليه الغسل سُنَّ له أن يتوضأ وضوءه للصلاة ثم يفيض الماء على جسده.

۞ أن **يصلي الإنسان في نعليه** الطاهرتين في البر أو في أي مكان يمكنه فيه تطبيق هذه السنة، وأما في المساجد فلا يحسن.

۞ **البدء باليمين** عند لبس النعلين، **وباليسار** عند خلعهما.

۞ إذا شرب الإنسان فالسُّنَّة أن يشرب **جالساً** على دفعات **ثلاث** يأخذ بينها نفساً.

۞ إذا قدم من سفر ابتدأ **بركعتين** في المسجد.

۞ ومن السنن **زيارة القبور**، وقد كان النبي الكريم ﷺ كلما كان في ليلة عائشة خرج من آخر الليل إلى بقيع الغرقد فيقول: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون، وإنَّا إنْ شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد".

۞ ومن السنن المهجورة كثرة **الدعاء قبل التسليم** من الصلاة لقوله ﷺ: (ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو) متفق عليه.

۞ ومنها **إفشاء السلام** على من عرفت ومن لم تعرف.

۞ ومنها أن يدعو إذا سمع **صياح الديك** ويسأل الله من فضله لأنه حينئذ رأى ملكاً، وإن سمع **نهيق حمار** تعوذ بالله من الشيطان لأنَّ الحمار حينها رأى شيطاناً، والحديث متفق عليه.

۞ ومن السنن المهجورة الصلاة إلى **سترة**.

۞ وصلاة **الضحى**.

۞ وأداء النوافل في **البيوت**.

❁ **وقيام الليل**.

❁ وأداء **الوتر**.

❁ **والسنن الرواتب** وهي ثنتا عشرة ركعة، من حافظ عليها بنى الله له بيتاً في الجنّة.

❁ ومن السنن عظيمةِ الأجر **صيام ثلاثة أيّام** من كل شهر، فإنها تعدل صيام الشهر كاملاً.

❁ وإذا تردد الإنسان في فعلِ أمرٍ صلّى **صلاة الاستخارة**، وقد كان النبي ﷺ يعلمها الصحابة كما يعلمهم السورة من القرآن كما في رواية جابر في الصحيح.

❁ فإذا سمع الأذان **ردَّدَ** مع المؤذن، ثم **صلى** على النبي ﷺ وسأل له الوسيلة، ومن فعل ذلك حلّت له شفاعة النبي ﷺ.

❁ فإذا ركب السيارة أتى **بدعاء ركوب الدابّة**.

❁ وإن كان مسافراً أتى **بدعاء السّفر**.

❁ وهكذا مع كل **الأذكار** الواردة عن النبي ﷺ.

❁ وملازمة **السِّواك** سُنَّة.

❁ **وزيارة الإخوان** في الله سُنَّة.

❁ **والجلوس في المصلى** بعد الفجر حتى تطلع الشمس، ثم ينتظر قرابة ربع ساعة ويصلي الضحى، فمن فعل ذلك كان كمن

أتى بحجة وعمرة تامّة تامّة تامّة. والحديث في هذا حسّنه العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ وكان يحث على العمل به.

❁ ومنها أيها الطّيب الحرص على **الطِّيب** الطَّيب فقد حُبِّب إلى حبيبنا ﷺ.

❁ ومنها **الاحتفاء**، أي المشي حافياً بلا نعلين بعض الأحيان، وكان العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ يطبق هذه السنة فيذهب حافياً إلى المسجد في بعض الأوقات المناسبة.

★ ★ ★

وبعدُ، فهذه بعض السنن التي صحَّتْ عن النبي الكريم ﷺ، واقتصادٌ في سُنَّةٍ خيرٌ من اجتهاد في بدعة، فليكن همُّ أحدنا بعد ضبط الفرائض الاستزادةُ من الحسنات بإحياء هذه السنن عملاً وتعليماً وإرشاداً (ومن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده)، ومعنى سنَّ: أحيا سُنَّةً قَلَّ عملُ النّاسِ بها.

★ ★ ★

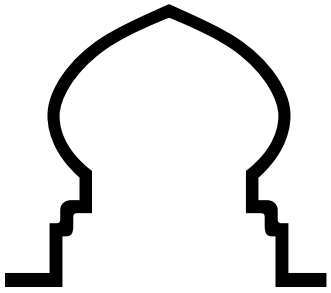

النافذة
التاسعة والعشرون

المبارك ابن المبارك

أبو عبدالرحمن المروزي، عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي مولاهم.

أبوه تركيٌّ عبدٌ لتاجرٍ من همذان من بني حنظلة، كان رجلاً صالحاً عابداً محبًّا للخلوة، ومن ورعه أنه لما طلب منه سيده رُمّانةً حلوةً أتاه بحامضةٍ ثلاثَ مرّات، فغضب منه ووبَّخه ولامَه على عدم معرفة الحلو من الحامض من ثمار مزرعةٍ يعمل بها منذ سنين، فأخبره أنه لم يأكل منها شيئاً لأنه لم يؤذن له بذلك، فأُعجب به سيده وزوجته ابنته فرزقا الابن المبارك عبدالله.

★ ★ ★

ولد عبدالله بن المبارك في مرو سنة ١١٨هـ، ونشأ وتعلم بها، ورحل في طلب العلم إلى الشام واليمن ومصر والجزيرة والكوفة والبصرة، ولذا زاد شيوخه عن أربعة آلاف شيخ.

★ ★ ★

كان من عجيب شأنه **تطلبه للفائدة**، ولذا رحل من مرو إلى الريّ ليسمع كلمة الحسن البصري رحمه الله: "لا تشتر مودة ألف رجل بعداوة رجل واحد".

ومات له ابنٌ فعزّاه مجوسيٌّ فقال: "ينبغي للعاقل أنْ يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد أسبوع"، فقال ابن المبارك: "اكتبوا هذه".

وكان يقول: "لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظنَّ أنه قد علم فقد جهل".

قال عنه ابن الأعرابي –عالم اللغة المشهور–: "كان لا يترك نقّارةً إلا انتقرها، ولا نمّاصةً إلا انتمصها، وإنه لملقفةُ الكلمةِ الشّرود".

★ ★ ★

كان يُكثر الجلوس في بيته فيقال له: ألا تستوحش؟

فيقول: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه، ومع الحكماء والأولياء، ثم ينشد:

ولي جلساءٌ ما أملُّ حديثَهم ... ألبّاءُ مأمونونَ غيباً ومشهدا
إذا ما اجتمعنا كان حُسْنُ مُعيناً على دفع الهموم مؤيدا
يفيدونني مِن علمهم علمَ ما قد ... وعقلاً وتأديباً ورأياً مسددا
بلا رقبةٍ أخشى ولا سوءِ عِشرةٍ ... ولا أتَّقي منهم لساناً ولا يدا
فإنْ قلتُ أحياءٌ فلستُ بكاذبٍ ... وإنْ قلتُ أمواتٌ فلست مُفنّدا

★ ★ ★

ذهب إلى مجلس حمّاد بن زيد يسلم عليه، فقال الطلبة لشيخهم: سل ابن المبارك يحدثنا. فطلب منه فاعتذر تواضعاً واحتراماً لشيخه، فلما ألحَّ عليه

قال: "خذوا! حدّثنا حمّاد بن زيد قال.." ثم استغرق المجلس كله يحدث عن حمّاد بن زيد!

★ ★ ★

كان يَعرف للصحابة قدرهم فيقول: "خصلتان من كانت فيه نجا: الصدق، وحب أصحاب محمد ﷺ".

وكان يقول: "والله إنَّ الغبارَ الذي دخل في أنف معاوية مع رسول الله ﷺ أفضلُ من عمر بن عبدالعزيز ألف مرّة. صلّى معاوية خلف رسول الله ﷺ فقال سمع الله لمن حمده فقال معاوية ربنا ولك الحمد، فماذا بعد هذا؟".

★ ★ ★

قال عنه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "كان كثير الغزو والحج".

وقال عنه الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "كان رأساً في الشجاعة، وكان يحج سَنَةً ويغزو سَنَة".

★ ★ ★

ومما تميز به ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ صفة **التواضع**.

كان إذا بلغه عن أصحابه أنهم أضافوا له مسألة؛ أمر بكشطها وهو يقول: "من أنا حتى يُكتب قولي؟".

وسُئل مسألةً في المسجد الحرام فقال: "مثلي يفتي في المسجد الحرام؟! وهل أنا أهلٌ أن أفتيَ في المسجد الحرام؟!".

وكان يعجبه قول مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: "لو أنَّ منادياً ينادي بباب المسجد ليخرج شرُّكُم عملاً؛ والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوّة أو سعي".

★ ★ ★

ومن صور **ورعه** قوله: "لأن أرد درهماً من شبهة أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف، حتى بلغ ستمائة ألف".

★ ★ ★

ولابن المبارك **أقوال ونصائح بليغة**، منها:

- قال له رجل أوصني، فقال: "اترك فضول النظر توفق للخشوع، واترك فضول الكلام توفق للحكمة، واترك فضول الطعام توفق للعبادة، واترك التجسس على عيوب النّاس توفق للاطلاع على عيوب نفسك، واترك الخوض في ذات الله توق الشكَّ والنفاق".
- "إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، فإذا كانوا على طمع فبمن يقتدى؟ وإنَّ التجار أمناء الله، فإذا خانوا فمن يؤتمن؟ وإن الغزاة أضياف الله، فإذا غلوا فبمن يُظفر على العدو؟ وإنَّ الزهاد ملوك الأرض، فإذا كانوا ذوي رياء فمن يُتّبع؟ وإنَّ الولاة رعاة الأنام، فإذا كان الراعي ذئباً فبمن تُحفظ الرعيّة؟".
- "الدنيا سجن المؤمن، وأعظم أعماله في السجن الصبر وكظم الغيظ، وليس للمؤمن في الدنيا دولة، وإنما دولته في الآخرة".

۞ "كم حاملٍ للقرآن والقرآن يلعنه".

۞ "إذا غلبتْ محاسنُ الرجلِ لم تذكر المساوئ، وإذا غلبتِ المساوئُ لم تذكرِ المحاسن".

۞ سُئل: مَنِ النّاس؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزُّهَّاد. قيل: فمن السَّفَلة؟ قال: الذين يعيشون بدينهم.

۞ سُئل: ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: غريزة علم. قيل: فإن لم يكن؟ قال: حسن أدب. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ شفيق يستشيره. قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمتٌ طويل. قيل: فإن لم يكن؟ قال: موتٌ عاجل!

۞ "اللحن في القول أقبح من آثار الجدري في الوجه"!

★ ★ ★

ولابن المبارك **أشعار رائقة** مليئة بالحكم والمعاني الرائعة، ومنها هذه المقتطفات:

أيها الطالب علماً إيت حمّاد بن زيد
فخذ العلمَ بحلمٍ ثمَّ قيّده بقيدْ
وذرِ البدعة من آثار عمرو بن عبيد

★ ★ ★

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره وقد فتحتَ لك الحانوت بالدينِ

بين الأساطين حانوتٌ بلا غَلَقٍ تبتاع بالدين أموال السلاطينِ
صيّرتَ دينك شاهيناً تصيد بهِ وليس يُفلحُ أصحابُ الشواهينِ

★ ★ ★

إني امرؤٌ ليس في ديني لغامزهِ لينٌ ولستُ على الإسلام طعّانا
فلا أسبُّ أبا بكرٍ ولا عمراً ولن أسبَّ معاذ الله عثمانا
ولا ابنَ عمِّ رسولِ الله أشتُمه حتى أُلَبَّسَ تحتَ التُّربِ أكفانا
ولا الزبيرَ حواريَّ الرسول ولا أُهدي لطلحة شتماً عزَّ أو هانا
ولا أقولُ عليًّا في السحاب إذاً قد قلتُ والله ظلماً ثم عدوانا
ولا أقولُ بقول الجهم إنَّ له قولاً يُضارع أهل الشرك أحيانا
ولا أقولُ تخلّى عن خليقته ربُّ العباد وولى الأمرَ شيطانا
ما قالَ فرعون هذا في تجبره فرعون موسى ولا هامان طغيانا

★ ★ ★

وبعدُ، فهذه شذرات من سيرة هذا العَلَم الفذ الإمام القدوة رحمه الله رحمةً واسعة[1].

★ ★ ★

[1] لمزيد: عبدالله بن المبارك الإمام القدوة، محمد عثمان جمال، دار القلم، ط٣/ ١٤٠٧هـ.

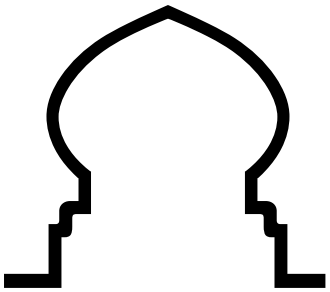

النافذة الثلاثون

زين العابدين

عَلَمٌ من الأعلام الكبار.

قال عنه الزهري: "ما رأيت قرشيًّا أفضل منه".

وقال مالك: "لم يكن في أهل بيت رسول الله ﷺ مثله".

★ ★ ★

إنه **زين العابدين** علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

ولد بالكوفة سنة سبع وثلاثين، وحفظ القرآنَ صغيراً، وروى الحديثَ عن أبيه الحسين وعن ابن عباس وأبي هريرة وعائشة وأم سلمة وغيرهم، وحذق الفقه فكان من أفقه النّاس.

ولما وقعت كربلاء شاء الله أن يكون الناجيَ الوحيد من ذكور آل البيت، فكلُّ نسبٍ يرجع إلى أبيه الحسين فمن طريقه.

★ ★ ★

كان كثيرَ العبادةِ والتنفلِ ليلاً ونهاراً، لا يدع قيام الليل في سفر ولا حضر، وكان كثير العتق في رمضان ويوم عرفة خاصّة، لذا سمي زين العابدين، وكان لقباً في مكانه الصحيح.

★ ★ ★

في حياة علي بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ **جوانب أسوة** كثيرة.

منها: جانب **الورع**.

قال سعيد بن المسيب: "ما رأيت أورع من علي بن الحسين".

وذكر مالك عنه أنه أحرم مرّة فأراد أنْ يشرع بالتلبية فأغمي عليه، فلما سئل عن ذلك قال: "خشيت أنْ أقول لبيك فيقال لي لا لبيك".

★ ★ ★

ومنها: جانب **الكرم والبذل والعطاء**.

بذل ماله كله لله مرتين.

وكان يقول: "إني لأستحيي من الله أن أرى الأخ من إخواني فأسأل الله له الجنّة وأبخل عليه بالدنيا".

قال ابن إسحاق: كان ناسٌ من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين يأتيهم معاشهم حتى مات علي بن الحسين فانقطع ذلك فعرفوا".

مائة بيت من بيوتات المدينة كان يحمل لهم الأرزاق في ظلمة الليل لعبارةٍ كان يرددها: "صدقة الليل تطفئ غضب الرب"، فلما غُسِّل وُجدت آثارُ الأكياس على ظهره.

وكان إذا أتاه سائل قال: "أهلاً بمن يحمل زادي إلى الآخرة".

وظلّت كلمةُ أهل المدينة منارةً لا تُنسى حين كانوا يرددون: لم نفقد صدقة السر حتى مات علي بن الحسين.

★ ★ ★

ومنها: **البر بالوالدين**.

كان لا يأكل مع والدته في صحفة واحدة خشية أن تسبق يده للقمةٍ كانت تشتهيها!

★ ★ ★

ومنها: **التواضع**.

كان في التواضع آية!

كان يجالس موالِيَ فعوتب في ذلك فقال: "إني أجالس من أنتفع بمجالسته في ديني".

وجاء قوم فأثنوا عليه فقال لهم: "ما أكذبكم وأجرأكم على الله! حسبي أن يجعلني الله في صالحي قومي".

وكان يشترط على من يسافر معهم أن يكون ضمن خَدَمِ الرفقة!

وكان يزجر من أراد مساعدته على الوضوء.

وإذا مشى لم يخطر بيديه بل لا تجاوز يده فخذه في سكينة ووقار.

★ ★ ★

ومنها: **الحلم**.

كان صاحب حلم عجيب!

استطال رجلٌ في عرضه يوماً وهو مُعْرِضٌ عنه فقال الرجل: إياك أعني. فقال: وعنك أغضي.

وافترى عليه آخرُ الكذب فقال: "إن كنتُ كما قلتَ فإني أستغفر الله لنفسي، وإن لم أكن كما قلتَ فإني أستغفر الله لك".

★ ★ ★

ومنها: **تعظيم الصحابة**.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ معظماً للشيخين عارفاً لهما قدرهما.

سُئل مرة عن منزلتهما من رسول الله ﷺ؟ فأشار إلى قبريهما وقال: "منزلتهما منه الساعة". أي أنهما رفيقاه، قريبا المنزلة به بما لا يدانيهما غيرهما من الصحابة.

★ ★ ★

وختاماً فهذه **حادثة طريفة**!

حجّ هشام بن عبدالملك، وكان وليَّ العهد، فاجتهد أن يستلم الحجر فلم يتمكن لكثرة الزحام. وفجأة أخذ النّاس يُفسحون المكان لما رأوا علي بن الحسين مقبلاً، حتى أتى واستلم الحجر وقبّله.

اغتاظ هشام وقال متجاهلاً: مَن هذا؟، وهو يعرفه كما يعرف اسمه!

فاندفع الفرزدق في حميّة مرتجلاً ميميَّته المذهلة:

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأته ... والبيتُ يعرفهُ والحلُّ والحرمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهِمُ ... هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إنْ كنتَ جاهلَه ... بجده أنبياءُ الله قد خُتموا
وليس قولك مَن هذا بضائره ... العُرب تعرف من أنكرتَ والعجمُ
كلتا يديه غياثٌ عمَّ نفعهما ... يُستوكفان ولا يعروهما عدمُ
سهلُ الخليقة لا تُخشى بوادره ... يزينه اثنان حُسن الخُلْق والشيمُ
حمّالُ أثقالِ أقوامٍ إذا افتدحوا ... حلوُ الشمائل تحلو عنده نعمُ
ما قال لا قط إلا في تشهده ... لولا التشهد كانت لاؤه نعمُ
إذا رأته قريشٌ قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرمُ
يُغضي حياءً ويُغضَى من مهابته ... فما يُكلَّم إلا حين يبتسمُ
بكفه خيزرانٌ ريحه عَبِقٌ ... من كفِّ أروعَ في عِرنينه شَمَمُ
يكاد يمسكه عِرفان راحتهِ ... ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلمُ

★ ★ ★

ولما انتهى الفرزدق كان هشامٌ قد بلغ النهاية في غيظه فأمر به فسجن.

فلما علم علي بن الحسين أرسل للفرزدق بعشرة آلاف درهم فردها، فردها عليه زين العابدين وقال: "استعن بها على حوائجك فإنَّا إذا وهبنا شيئاً لا نستعيده"، فقبلها.

★ ★ ★

وفي سنة أربع وتسعين، وفي المدينة النبويّة؛ مدينةُ جَدِّهِ المصطفى ﷺ، مات زينُ العابدين عن سبع وخمسين سنة، ودُفن بالبقيع.

★ ★ ★

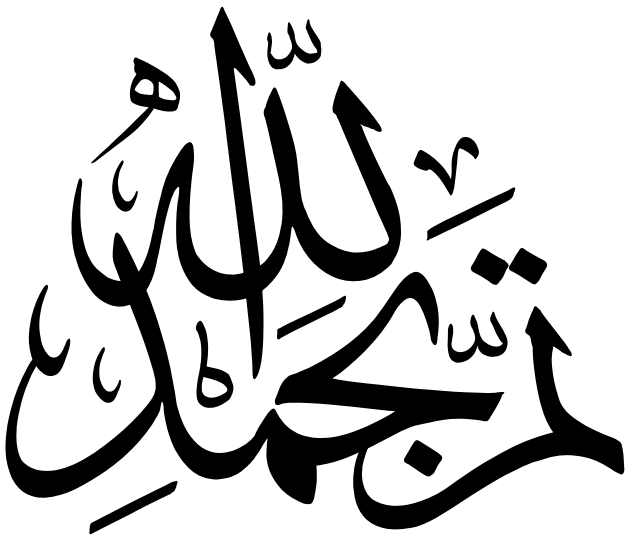

الفهرس

مقدمة ٣

العمر ليس إلا رقماً ٦

التّربيّة المحمديّة ١١

تنفّس الحريّة في جنّة الإسـلام ١٦

تاج القُضاة ٢١

مَن تُجالس؟ ٢٦

العلم نور في دياجير الحياة ٣١

أوسـاهير ٣٦

مِن الدِّين الحذرُ من الدَّين ٤١

دموةٌ للإنصاف ٤٦

الفُلّاني ٥٢

ذُو النّور ٥٧

أحبُّ الاعمال ٦١

على الرأس والعين ٦٥

البارقليط ٧٠

الكبش النّطّاح ٧٥

مروحة السُّنَّة ٨١

الديوان الثاني ٨٦

رسالةٌ من ابن القيّم ٩١

الفاروق الثاني ٩٦

هذه ليست نصيحة ١٠٣

صحبوا القرآن ١٠٨

تبعوا القرآن ١١٣

جيلٌ لن يتكرر ١١٩

ذئبان مفترسان ١٢٤

أصل الاصول ١٣٠

مصادر مقديّة ١٣٥

فاتح الاندلس ١٤٠

سُنَنٌ مهجورة ١٤٥

المبارکُ ابنُ المبارک ١٥٠

زين العابدين ١٥٧

الفهرس ١٦٤